الكتاب الأول

في المدينة

الفصل الأول

المدينة

١

موقع المدينة

تقع المدينة في إقليم الحجاز الذي يمتد بين أيلة (العقبة) واليمن، ويفصل بين مباسط تهامة ومشارف نجد. ويتميز الحجاز بكثرة ما يتخلله من جبال ومرتفعات، ووديان ومنخفضات. ومن يرجع إلى مخطط المدينة يجد في شماليها جبل أحد وجبل ثور، وفى جنوبيها جبل عير، بينما يحفُّها من الشرق والغرب مرتفعان، يتألفان من حجارة سود نَخِرة، وهما حرتا واقم والوبرة.

وداخل هذا السياج من الجبال والحرات تقوم المدينة اليوم، فهي في منخفض، تكتنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضا. وفى هذا المنخفض تكثر الوديان، وتكثر الآبار والعيون، لوفرة ما يهطل فيه من أمطار في أثناء الشتاء والربيع. وأهم الوديان هناك بطْحان ورانوناء ومهزور ومذّينب في الجنوب بين المدينة وعير، وقناة في الشمال بين المدينة وأحد، والعقيق في الغرب وراء حرة الوبرة. وتكتظ هذه الوديان بالعيون من الآبار، وأشهرها عين الأزرق وبئر أريس في وادي رانوناء وبئر عروة وبئر رومة في وادي العقيق[1].

وتنبت حول هذه العيون والآبار جنات النخيل والأشجار، فتملأ البصر بهجة ورواء بهذه المشاهد الأنيقة وسط بحار الرمل التي موج بها صحراء العرب. ومن ثم كانت المدينة تبدو

---

[1] انظر في وديان المدينة وآبارها وعيونها كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي (طبع مطبعة المؤيد)١١٩/٢ وما بعدها وكذلك ١٨٦/٢ وما بعدها وانظر فتوح البلدان للبلاذري (طبع ليدن) ص ١٤ وما بعدها.

داخل الجزيرة العربية كأنها واحة بديعة، أو قل إنها ابتسامة الطبيعة تبدو على محيا عابس هو محيا الصحراء الهامدة.

وجعلت هذه المياه والخضرة، أو قل هذه العيون والجنات، جو المدينة محتملا، فهي على الرغم من وقوعها على خط العرض ٢٥ وهو الخط نفسه الذي يمر بمدينة الأقصر، طيبة مصر الفرعونية، تمتاز بجو ملطف، وهو جو يزخر بظلال النخيل والأشجار. وربما كان من أهم أسباب اعتدال جوها أنها تعلو سطح البحر بنحو ستمائة متر، مما يجعل جوها مقبولا وخاصة في فصلى الشتاء والربيع، إذ تسقط الأمطار. أما في فصل الصيف فإن الحرارة تشتد اشتداداً قد يعرض المدينة لنمو بعض الحميات، وقد مرض بها جماعة من المهاجرين في أول هجرتهم إليها، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق[1].

وأجمل بقاع المدينة وادي العقيق، وكان متنزه أهل المدينة في العصور الإسلامية، وخاصة حير تنزل الأمطار والسيول، وتتجمع فيه على شكل بركة كبيرة[2]. واشتهر العقيق بجماواته الثلاث: جماء تضارع، وجماء أم خالد، وجماء عاقل. والجماء مرتفع صخري بارز، تسيل منه مياه الأمطار في منظر بهيج. وفى شمالي العقيق نجد العرصة الكبرى والعرصة الصغرى، وهما من أفضل بقاعه، وأكرم أصقاعه[3]

وكلمة المدينة في العربية معناها البلدة، واختصت بيثرب بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها، ولذلك تضاف إليه، فيقال مدينة الرسول. ويميز اللغويون في النسبة بينها وبين المدن الأخرى، فيقال في النسبة إليها "مدني" وإلى غيرها "مديني".

وسميت أسماء مختلفة حتى قيل إن لها عشرة أسماء[4] وأوصل السمهودي سماءها إلى نحو تسعين اسما[5]. وربما جاءت كثرة هذه الأسماء من أسماء مواضع فيها كانت تنزلها العشائر

---

[1] سيرة ابن هشام (طبع الحلبي) ٢/ ٢٣٨.

[2] أغاني (طبعة دار الكتب)٣٢/٣. وفى الأجزاء التسعة الأولى تراجع دائماً طبعة دار الكتب وفى الأجزاء الأخرى تراجع طبعة بولاق.

[3] انظر كلمة، عرصة في معجم البلدان لياقوت.

[4] مختصر كماب البلدان لابن الفقيه (طبع ليدان) ص ٢٣

[5] وفاء الوفاه للسمهودي ٧/١ وما بعدها.

في الجاهلية. واسمها الذي عرفت به واشتهرت في العصر الجاهلي يثرب، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم[6]، وفى السيرة النبوية في أشعار. حسان[7] بن ثابت وكعب[8] بن مالك.

والمدينة- كما رأينا- بلد زروع ونخيل، ومن هنا كان سكانها من أهل المدر لا من أهل الوبر، فهم لا يعتمدون في حياتهم مثل البدو على رعى الأغنام، وإنما يعتمدون على زرع الأرض، وهم لا يتخذون بيوتهم من الأصواف والأوبار، وإنما يتخذونها من الآطام والحصون التي أقاموها على المرتفعات لتحميهم من هجمات البدو وغزواتهم. ولم تكن المدينة في الجاهلية تحاط بسور، وقصة حفر الخندق حولها حين تجمعت قريش لقتال الرسول صلى الله عليه وسلم معروفة.

٢

المدينة في العصر الجاهلي

تاريخ المدينة في العصر الجاهلي يحوطه كثير من الغموض، وهو في أكثره يعتمد على الأسطورة، وخاصة ما تعمق منه في القدم. وتذكر المصادر العربية أن أول من سكنها العمالقة، وكانوا أهل عز وبغى شديد، وهم أول من اتخذ فيها النخيل والزروع[1]، ووفد عليهم اليهود في القرن الأول للميلاد أو بعده بقليل على أثر اضطهاد الرومان لهم، وكانوا قبائل أهمها بنو قريظة وبنو النضير وبنو بهدل وبنو قَينُقَاع[2]، ويخاطبهم القرآن الكريم في مواطن متفرقة باسم بنى إسرائيل. وظلوا على دين آبائهم، وكانوا يعيشون على الزرع والحرث[3]، واحترفت طائفة منهم صناعة الأسلحة، كما احترف بعض نسائهم نسج الأقمشة[4]. ونزح إلى المدينة من اليمن في القرن الخامس للميلاد بعد سيل العرم قبائل الأوس والخزرج[5]، وغلبوا

---

[6] انظر سورة الأحزاب: الآية ١٣.

[7] ابن هشام ٢٨١/٣.

[8] ابن هشام ١٥١/٣.

[1] أغاني (طبع بولاق) ٩٦/١٦ والسمهودى ١/ ١١٠

[2] ساق أبو الفرج الأصبهانى ثبتاً بأسماء القبائل ! الهودية في المدينة. انظر الأغاني ١٩/ ٩٥ وطبعة دار الكتب ٣/ ١١٦.

[3] السمهودى ١/ ١١٣ وما بعدها.

[4] البلاذري ص ٦٠.

[5] Nicholson, Al it –Hist of the Arabs .P. 16

اليهود عليها، يعينهم أبو جبيلة ملك الغساسنة[6]، وقيل أبو كرب تبع بن حسان ملك اليمن[7]، وبذلك أصبحوا- وظلوا- سادة المدينة. وكانوا مثل لعرب من حولهم- لا يأمنون مكر اليهود ويعدونهم عدوا لهم.

وعين السمهودي الأماكن التي نزلت فيها قبائل الأوس والخزرج، أما الخزرج وخاصة بنى النجار فكانوا ينزلون داخل المدينة وانتشرت جماعات منهم في الشرق والشمال الشرقي منها، وأما الأوس فكانوا ينزلون في الجنوب والجنوب الشرقي من المدينة[1]. وكانوا جميعا وثنيين يعبدون اللات ومناة. ولسنا نعرف بعد ذلك شيئا واضحا عن عبادتهم، ونجد بعض شعرائهم يذكرون الله في شعرهم[2]. ويبدو أن النصرانية كانت معروفة في يثرب، ففي السيرة أن شخصاً يسمى عبد عمرو بن صيفي خرج على النبي صلى الله عليه وسلم وحارب في صفوف قريش، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح[3].

ويظهر أن عدوى الحرب بين القبائل العربية المتبدية في نجد انتقلت إلى المدينة في أواخر العصر الجاهلي، ولكن لا بين الأوس والخزرج من جهة واليهود من جهة ثانية، وإنما بين الأوس والخزرج أنفسهما، ويبدو أن اليهود لما شعروا بأنهم لا قبل لهم بهاتين القبيلتين الكبيرتين أشعلوا نيران العداوة والبغضاء بينهما وكانوا يمدونهما بالأسلحة التي يستخدمانها في حروبهما إذ كانوا يحترفون صنع الأسلحة كما مر بنا.

وهكذا دارت رحى الحرب في المدينة لأواخر العصر الجاهلي بين الأوس والخزرج، وأخذت هذه الرحى تعركهم بثقالها عركاً عنيفاً، بحيث يظن الإنسان أنه لم يعد من الممكن أن يعم السلم في المدينة، فدائماً حرب، ودائماً رماح مشْرعة وسيوف مسلولة ودماء مسفوحة.

وعلى هذا النحو كان الأوس والخزرج أواخر العصر الجاهلي لا يرفعون أيديهم من دماء حرب قديمة حتى يغمسوها في دماء حرب جديدة، وكأنهم تعاهدوا على الموت وأن تلتهمهم نيران الحروب التهاماً.

---

[6] أغاني ١٩/ ٦٩.

[7] أغاني ١١٩/١٣ وما بعدها.

[1] السمهودي ١٣٤/١ وما بعدها.

[2] كما في شعر أبى قيص بن الأسلت. انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ١٤/٣ وشعر قيس بن الخطيم انظر المصدرنفسه ٣/ ٢٣.

[3] ابن هشام ٢/ ٢٣٤

٣

في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

رأينا أهل المدينة من الأوس والخزرج في العصر الجاهلي غارقين في الدماء، كما رأيناهم غارقين في ظلمات الوثنية، غير أنهم لم يلبثوا أن غسلوا أنفسهم من كل ذلك بأضواء الدين الجديد، دين الإسلام الذي استل أحقادهم و سخائمهم، وجعلهم بنعمة الله إخواناً.

وقد حمل إليهم مشاعل هذا الدين الجديد أول الأمر نفر نهم لقيهم الرسول صلى الله عليه و سلم في مكة، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا[1] وفى العام القابل أتاه وفد يضم عشرة من الخزرج واثنين من الأوس فبايعوه بيعة العقبة الأول[2]. وبعث النبي مع هذا الوفد مصعب بن عمير يعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين[3]. وسرعان ما أخذت أضواء الإسلام تنتشر من دار إلى دار، بين الأوس والخزرج، حتى إذا استدار العام وفد على الرسول سبعون رجلا وامرأتان، فسألوه الخروج إليهم وبايعوه بيعة العقبة الكبرى[4]. وجعل منهم النبي اثني عشر نقيباً كفلاء عليهم: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[5].

وكانت هذه البيعة صريحة في أن الرسول سيترك دار الأرقم محل دعوته في مكة، ويتخذ من المدينة كلها دارا لدعوته بين ظهراني الأنصار، فقد وجدهم. أكثر قبولاً لرسالته.

وأخذت يثرب تستعد لاستقبال الرسول وأصحابه من المسلمين، وقد رأى أن يهاجر أصحابه، فأمرهم بالهجرة، فهاجروا أولاً، ولم تمض بضعة أشهر حتى كانوا قد هاجروا إليها جميعاً، إلا من استبقاهم الرسول معه، وأخيراً خرج من داره مهاجراً، ومعه أبو بكر الصديق، ودليلهما عبد الله بن أُريقِط. ودقت البشائر في المدينة بهجرته، فكانوا يتسمعون أخبار رحلته، ويخرجون لاستقباله، حتى وافتهم طلعته السنية، وأقبل رجال الأوس والخزرج يتزاحمون

---

[1] ابن هشام ٢/ ٧٠.

[2] ابن هشام ٢/ ٧٥.

[3] ابن هشام ٢/ ٧٦.

[4] ابن هشام ٨٤/٢ وكذلك ٩٧/٢. وانظر اليعقوبي ٢/ ٣٨.

[5] ابن هشام ٨٥/٢.

حول راحلته بالمناكب، فكل يود لو ينزل في داره، واختار الرسول دار أبى أيوب الأنصاري، فأقام عنده، حتى بنى له داراً، وبنى بجوار الدار مسجداً[6].

وكان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم في يثرب أن آخى بين المسلمين[7]، فكل يتخذ له أخاً في الله، وبذلك آخى بين المهاجرين والأنصار من جهة، كما آخى بين الأوس والخزرج من جهة أخرى، وكأنه أراد أن يزيل كل ما كان بين الفئتين من إحن في الجاهلية، حتى تتم وحدة المسلمين، وتتماسك عراهم فلا يتخاذلوا بعدها أبداً.

ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، فقد أراد ليثرب أن يعمها السلام، فعقد بينه وبين اليهود معاهدة جاء فيها: "أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم فلا يبغي بعضهم على بعض" كما جاء فيها "أن بين الفئتين من اليهود والمسلمين النصر على من دهم يثرب"[1].

وكان ذلك كفيلا أن يعيش الرسول والمسلمون من حوله في يثرب آمنين مطمئنين، ولكن اليهود أخذوا يشنون حربا شعواء من الأسئلة والجدل في أمر الرسول وصحة رسالته، فكان يستقبلهم باللين، وأوغلوا في حربهم[2] ولم يقف هذه الحرب إسلام جماعة منهم[3]، فإن الكثرة وقفت معارضة، بل وقفت معادية تحاد الله ورسوله.

ولما انتصر الرسول صلى الله عليه وسلم على قريش في بدر في أثناء السنة الثانية للهجرة، أخذ بنوقينقاع يتحرشون بالمسلمين، فجمعهم النبي بالسوق التي تنسب إليهم، ودعاهم إلى الإسلام، فبادروا إليه قائلين: "لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس" وأعلنوا حربهم للرسول، فحاصرهم وظل هذا الحصار، حتى رضوا أن يجلوا عن المدينة، فخرجوا إلى أذْرِعات بالشام[4].

ولما كانت موقعة أحد حاول النبي أن يستعين ببني النَّضير في دية بعض القتلى، فائتمروا به أن يقتلوه[5]، حينئذ لم يجد مناصاً من إعلانه الحرب عليهم وحاصرهم، ولما رأوا أن لا قوة

---

[6] ابن هشام ٢/ ١٤١

[7] ابن هشام ١٥٠/٢.

[1] ابن هشام ١٤٧/٢.

[2] ابن هشام ١٦٠/٢ وما بعدها

[3] ابن هشام ١٦٣/٢ وكذلك ١٧٤/٢.

[4] ابن هشام ٥٠/٣ وما بعدها

[5] ابن هشام ١٩٩/٣.

لهم على حربه، طلبوا الصلح، فصالحهم على أن يخرجوا من المدينة "ولهم ما حملت الإبل من خرثى متاعهم، لا يخرجون معهم بذهب ولا فضة ولا سلاح"، فتحملوا[6]، سنة أربع من الهجرة[7]، وعلى رأسهم حيي ابن أخطب، ونزلوا في خيبر وأذرعات.

ولما كانت وقعة الخندق المعروفة أرسل بنو قريظة إلى قريش ومن معها من. العرب المحاصرين للمدينة أنهم سينقضون عهد موادعتهم للرسول والمسلمين وينضمون إليهم وكادت أن تقع الكارثة بدخول هذه الجيوش المحاصرة ليثرب من ديارهم، فلما أنقذ الله يثرب توجه الرسول إليهم مع المهاجرين والأنصار–، فآذنم بحرب جزاء وفاقاً لنكثهم أيمانهم. واشتبك الطرفان، وأسرع بنو قريظة إلى حصونهم، فحاصرهم رسول الله، حتى نزلوا. على حكم سعد بن معاذ، وارتضوا ما يحكم به فحكم أن يقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذرارى والنساء[1].

ولما استدار. العام ذهب النبي إلى مكة للحج، وصدته قريش وهادن أهلها[2]. ثم عاد إلى المدينة يستجم لمتابعة أعداء الإسلام من اليهود في خيبر وغيرها من حصونهم شمالي المدينة. وفى هذه السنة السادسة بعث برسله إلى عظماء الملوك في عصره يدعوهم إلى الإسلام[3]، ولا ريب في أنه كان مدفوعاً في ذلك برسالته وأنها عامة، إذ أرسل إلى الناس كافة، يقول جل شأنه: (وما أَرسلْنَاك إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بشِيرا ونَذِيرا ولَكِن أَكْثَر النَّاسِ لا يعلَمون) ويقول عز وجل: (هو الَّذِي أَرسلَ رسولَه بِالْهدى ودِينِ الْحقِّ لِيظْهِره علَى الدينِ كُلِّه ولَو كَرِه الْمشْرِكُون).

وفى العام القابل، وهو العام السابع للهجرة، تابع النبي اليهود في خيبر فحاربهم وحاصرهم وألقوا إليه عن يد وهم صاغرون على أن يعطوه نصف ثمر بلادهم[4] مقابل عملهم بها. وكذلك صنع يهود فَدك[5]، ويهود تَيماء، ووادى القُرى[6].

---

[6] اليعقوبى ٢/ ٥٠.

[7] ابن هشام ١٩٩/٣.

[1] ابن هشام ٢٥١/٣.

[2] ابن هشام ٣/ ٣٢١ واليعقوبى ٥٤/٢.

[3] ابن هشام ٤/ ٢٥٤ واليعقوبى ٨٣/٢.

[4] ابن هشام ٣٥٢/٣ انظر البلاذري ص ٢٣

[5] ابن هشام ٣٦٨/٣ انظر البلاذري ٢٩.

وأتم الله نعمته على نبيه ففتح مكة في العام الثامن للهجرة[7]، ثم تركها إلى وقعة حنَين والطائف. وكان لهذه الانتصارات أثر عظيم في استعلاء الإسلام نهائيا على الوثنية، فإن العرب لما سمعوا بها أخذوا يدخلون في دين الله أفواجاً. و لم يأت العام التاسع للهجرة، حتى كانت المدينة تكتظ بوفود القبائل التي جاءت تعلن الإسلام[8] و تمت المعجزة الكبرى فقد انضوت القبائل العربية كلها، لأول مرة في تاريخها، تحت لواء واحد هو لواء الإسلام. وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتمم رسالته، وأن ينفخ بها في آذان الأم الأجنبية، فأرسل جيشاً لغزو الروم، وكانت وقعة مؤْتة[9].

ولم يلبث النبي صلى الله عليه وسلم أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، دون أن يترك وصية بمن يلي شؤون المسلمين، ولم يكن العرب يعرفون النظام الملكي وما يقوم عليه من وراثة، كذلك لم يكونوا يعرفون ما اعتنقته الشيعة فيما بعد من أن أسرة الرسول لها حق مقدس، ومن هنا كان اجتماع الأنصار في سقيفة بنى ساعدة، وقد أرادوا أن يكون لهم الأمر بعد الرسول أو يكونوا شركاء فيه، وذهب إليهم المهاجرون وعلى رأسهم أبو بكر وعمر، وأقنعوهم بأن العرب لا تخضع إلا لشخص من قريش، وبويع أبو بكر بالخلافة[1] لرسول الله والقيام على ما شرع من الدين، وكان لعمر الفضل الأول في مبايعته.

واضطلع أبو بكر بالخلافة، وكان (رجلاً مأْلَفاً لقومه محبباً سهلا")[2] وطالما كان الرسول يشيد بذكره. وأنفق بعد إسلامه أكثر ماله في شراء الموالى الذين كانت تعذبهم قريش[3]. ولما ولى الخلافة صعد المنبر، فجلس دون مجلس رسول الله بمرقاة، ثم حمد الله، وأثنى عليه وقال:(إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن استقمت فاتبعوني، وإن زغت فقومونى..) وأثنى على الأنصار خيراً[4].

---

[6] البلاذري ص ٣٣وما بعدها.

[7] ابن هشام٤/٣١

[8] ابن هشام ٤/٢٠٥ وما بعدها.

[9] المصدر السابق ٤/١٥.

[1] انظر الطبري في سنة ١١ ه.واليعقوبى ٢/١٣٧.

[2] ابن هشام ١/٢٦٧.

[3] ابن هشام ١/٣٣٩ وما بعدها.

[4] اليعقوبي ٢/ ١٤١

وبدأ فأمر أسامة بن زيد أن ينفذ في جيشه الذي أعده النبي صلى الله عليه وسلم للإغارة به على الشام وشيعه قائلا: "لا آمرك بشيء إلا بما أمرك به النبي وامض حيث ولاك" ومكث أسامة في هذه الغزوة ستين يوما[5].

وتنبأت جماعة في مطلع خلافة أبى بكر وعلى رأسها مسيلمة الكذاب[6]، وارتد كثير من العرب عن الإسلام، وامتنع كثيرون عن دفع الزكاة[7]. وهنا نرى أبا بكر يقوم بعمل جليل فقد عبأ الجيوش لإنقاذ الإسلام، وأرسلها في طلب مسيلمة وغيره ممن ارتدوا أو منعوا الزكاة. وما زالت هذه الجيوش تعمل، حتى أذعنت بلاد العرب للإسلام ثانية[8]. ولما استحر القتل في هذه الحروب بالصحابة وبمن معهم من القراء أشار عمر على أبى بكر أن يجمع القرآن في مصحف خشية ضياعه، وكان مفرقا في اللخاف وغيرها، فجمع أبو بكر الحفظة المشهود لهم بإتقان حفظه وأمرهم بجمعه في مصحف واحد، وفى مقدمتهم زيد بن ثابت وأبى بن كعب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب، وصدعوا بأمره.

ولم يكتف أبو بكر؟ بجمع العرب على كلمة الإسلام، فقد أراد أن يجمع الناس عليها متأثرا بما قدمناه من تعاليم الدين الإسلامي التي تذهب إلى أن النبت أرسل إلى الناس كافة، فأرسل الجيوش إلى الشام وفارس تفتح فيها. وقد استمرت موجة الفتح من بعده في ارتفاعها واشتدادها.

ولم يلبث أبو بكر أن لبى نداء ربه في السنة الثالثة من خلافته، فذهب راضياً مرضياً، وأوصى بالخلافة من بعده لعمر، وهو المثل الأعلى للخليفة عند المسلمين في خلقه ودينه وسياسته، وهو أول من تلقب بأمير المؤمنين[1]، ولما ولى الأمر صعد المنبر فجلس دون مجلس أبى بكر بمرقاة، وخطب الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي، وذكر أبا

---

[5] اليعقوبي ٢/ ١٤٢

[6] يظن مرجوليوت أن مسيلمة كان يتأثر ببعض تعالم المسيحية. انظر في ذلك:.hojson A Lit Hist of the .p. 183 NicArabsN

[7] اليعقو بى ٢/ ١٤٤.

[8] البلاذري ص ٩٤ وما بعدها.

[1] التاج للجاحظ طبعة أحمد زكى ص ٨٨.

بكر وفضله، وترحم عليه، ثم قال: "ما أنا إلا رجل منكم، ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله لما تقلدت أمركم"[2].

وكان أول عمل بدأ به في خلافته أن رد سبايا أهل الردة إلى عشائرهم، وقال: إنى كرهت أن يصير السبي سنة على العرب[3] واستمر على سياسة أبى بكر في إمداد الجيوش وفتح البلدان، بحيث لم يمر أكثر من اثنتي عشرة سنة من خلافته وخلافة أبى بكر حتى كانت الإمبراطورية الفارسية قد أصبحت ولاية تابعة للمدينة، وكذلك أصبحت سوريا ومصر.

ومن المحقق أن عمر لم يكْره أتباع زرادشت في فارس، ولا أتباع عيسى في مصر والشام على الإسلام، ومع ذلك فقد دخله كثير منهم حرا مختاراً، وظل قوم. على دينهم نظير دفع الجزية. ومن المحقق أنها لم تكن عقاباً لمن امتنعوا عن الإسلام من أصحاب الديانات الأخرى، إنما كانت نوعا من الضرائب يدفع لحمايتهم، فقد جاء في نصوص بعض المعاهدات التي عقدها خالد بن الوليد في العراق: "فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا"[4].

وأظهر عمر تسامحا منقطع النظير مع هؤلاء الذين ضربت عليهم الجزية. وبينما كان يأخذ أهل الديانات الأخرى بالتسامح، كان يأخذ عماله بالشدة. وكما كان شديدا على عماله كان شديدا على نفسه[5].

وقُتل عمر سنة ٢٣هـ.، قتلته يد أجنبية آثمة هي يد أبى لؤلؤة فيروز المجوسي، مولى المغيرة بن شعبة، وكان قائما يصلى[1]. وجعل عمر الأمر من بعده شورى لستة نفر من أصحاب رسول الله هم: عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، فانتخبوا عثمان، وبايعوه بالخلافة، وبايعه الناس، وكان طاعناً في السن، فأسلم أموره إلى بعض ذويه من بنى أمية. وكان ذلك سبباً للثورة عليه، سنة[2] ٣٥ للهجرة. وبويع على بالخلافة، بايعه أهل المدينة[3]. وسارع

---

[2] اليعقوبي ١٥٧/٢.

[3] اليعقوبي ١٥٨/٢.

[4] الطبري: طبع أوربا: القسم الأول ص ٢٠٥٠.

[5] انظر الطبري: القسم الاول ص ٢٧٤١

[1] البلاذري ص ٣٤.

[2] الطبري القسم الأول ص١٩٨٠ ومما بعدها.

[3] اليعقوبي ٢٠٦/٢.

فعزل ولاة عثمان، وكان من بينهم معاوية في الشام، فلم يستجب لهذا العزل، بل راية العصيان عليه، وطالبه بثأر عثمان، إذ كان مثله من بيت بنى أمية.

وذهب على إلى العراق لُيعِد جيشا يحارب به معاوية، وذهب إليه معاوية على رأس جيش من الشام، ولم تلبث الأمور أن تطورت، فقتل على سنة ٤٠ هـ.، وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١هـ.، وبذلك عادت الخلافة إلى بيت بنى أمية ثانية، واستمرت فيه نحو قرن من الزمان.

٤

في العصر الأموي

لعل أهم ظاهرة تميز المدينة في العصر الأموي (٤١- ١٣٢هـ.) أنها فقدت زعامتها السياسية، التي تمتعت بها طوال حكم الخلفاء الراشدين، فقد كانت عاصمة للإمبراطورية الإسلامية، تتبعها الولايات وتصرف شيءونها، أما في هذا العصر فقد أصبحت تابعة لدمشق العاصمة، وأصبح الولاة يختارون لها فيها، بعد أن كانت هي التي تختارهم لها، وتقيمهم عليها وعلى غيرها من بلدان العالم الإسلامي، ولم يقف الأمر عند ذلك، فقد أخذت تدفع إلى دمشق خراجها مما كان يسمى الصوافي من الحنطة والتمر[4].

وقد ولّى عليها معاوية (٤١- ٦٠هـ.) مروان[5] بن الحكم كاتب عثمان ابن عفان ومشيره، ثم أقاله، ولى عليها سعيد بن العاص، ثم عزله وولّى مروان ثانية. ويستطيع من ينظر في مختتم السنين في الطبري أن يجد أسماء الولاة الذين توالوا عليها طوال العصر الأموي، وأكثرهم من بيت بنى أمية، ولم يولَّ عليها من الأنصار سوى ابن حزم في عهد سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز.

وكانت المدينة طوال العصر الأموي تقف موقف المعارضة من بنى أمية. ومن المعروف أنه لما استولى بنو أمية على الخلافة قامت معارضة واسعة ضدهم، إذ كانوا من سلالة أشراف مكة في الجاهلية، ولم يكن لهم سابقة في الإسلام، بل على العكس من ذلك كانوا

---

[4] اليعقوبي ٢/٢٩٧.

[5] الطبري: القسم الثاني ص ١٦

يناهضون النبي في أول دعوته إلا قليلا منهم، ولم يسلم أكثرهم إلا بعد فتح مكة، فكان كثير من المسلمين يرون أنهم غاصبون للخلافة[1].

وانتشرت هذه الفكرة في إقليمين كبيرين، هما إقليما العراق والحجاز، أما العراق فقد كان فيه الخوارج وكان فيه الشيعة، وكان فيه أيضاً الموالى. يقول اليعقوبي: "في عصر معاوية خرجت عصابة من الموالى أميرهم أبو على من أهل الكوفة، وهو مولى لبنى الحارث بن كعب، وكانت أول خرجة خرجت فيها الموالى"[2] وحاربهم المغيرة بن شعبة وانتصر عليهم أحد قواده.

وهذه الطوائف الثلاث كان مركزها العراق وكان يقابلها في الحجاز طوائف أخرى من قريش والأنصار، وكانت المدينة مركز هذه الطوائف، فقد كان بها بيت الزبير بن العوام، ومنه خرج عبد الله ابنه، ودعا لنفسه بالخلافة، ودوخ جيوش بنى أمية ورجالهم حيناً، وكان بها بيت على بن أبى طالب، فإن الحسن بعد بيعته لمعاوية ذهب إلى المدينة[3]، وكذلك صنع أخوه الحسين[4]، ولم يلبث الحسين بعد وفاة معاوية أن خرج على يزيد، وذهب إلى مكة ثم العراق حيث قتل، وبعد مقتله أرسل يزيد أهله إلى المدينة[5]، فكان أولاده وأولاد أخيه الحسن يعيشون فيها، وكذلك كان يعيش فيها ابن الحنفية[6] وغيره من بنى هاشم الذين كانوا يرون جميعاً أنهم أحق بالخلافة من بنى أمية.

وليست هاتان الأسرتان، أسرتا الزبيريين والهاشميين، هما وحدهما اللتان كانتا شعران باغتصاب بنى أمية للخلافة، فقد كان يشعر شعورهما أسرة المخزوميين، إذ كان كثير منها زبيري الهوى[1]. وأكبر الظن أن كثيراً من الأسر الأخرى كأسرة أبى بكر وعمر بن الخطاب كانت مغاضبة للأمويين أيضاً.

---

[1] اليعقوبي ٢/٢٧٦.

[2] المصدر نفسه ٢/٢٦٢.

[3] الطبري: القسم الثانى ص ٦.

[4] المصدر نفسه: القسم الثاني ص ٩.

[5] المصدر نفسه: القسم الثاني ص ٢٨٣.

[6] الأخبار الطوال للدينورى طبع ليدن ص ٣٠٨

[1] أغاني طبع دار الكتب ٣/٣١٦.

كان إذن كثير من القرشين الذين يعيشون في المدينة مغاضبين لبنى أمية، وكان يذهب هذا المذهب نفسه جماعة الأنصار، ولمغاضبتهم تاريخ قديم، فإن الأنصار خذلوا عثمان[2]، وبايعوا عليا بعد قتله مباشرة[3]. ولما ذهب إلى العراق ذهب معه كثير منهم وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصاري[4]. وقد شهد صفين مع على من أهل بدر سبعة وثمانون رجلاً، منهم سبعون من الأنصار، وشهدها معه ممن بايع تحت الشجرة، وهي بيعة الرضوان، تسعمائة[5].

ولما دار الزمان دورته وأصبح معاوية هو الخليفة كان يعتبر أهل المدينة قتلة عثمان وأعداءه[6]، ويقال إنه أرسل إليهم بسر بن أرطأة، فأقام عندهم شهراً، يستعرضهم، ليس أحد ممن يقال هذا أعان على عثمان إلا قتله[7].

لم تكن المدينة ولم يكن الأنصار من هوى معاوية، وقد أغمدوا سيوفهم بعد قتل على وانتقال الخلافة إلى معاوية، ولكن يظهر أنهم لم يغمدوا ألسنتهم، فقد هجا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت معاوية حين استلحق زياداً هجاء قبيحاً[8]، واستفحل الشر بينه وبين عبد الرحمن بن الحكم في المدينة فتهاجيا وتفاحشا[9]. ولم يستطع ابن الحكم أن ينتصر منه على ما يظهر. وهنا نجد يزيد ابن معاوية يرسل إلى كعب بن جعيل كي يهجو له الأنصار، فقال له: أرادى أنت إلى الإشراك بعد الإيمان؟ لا أهجو قوما نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أدلك على غلام منا نصرانى، فدلّه على الأخطل، فأرسل إليه، فهجا الأنصار وعبد الرحمن بن حسان بقصيدة طويلة قال فيها:

ذهبت قريشٌ بالمكارم كلّها واللؤم تحت عمائم الأنصارِ[10]

---

[2] مروج الذهب للمسعودى ٢٨٤/٤ وما بعدها

[3] اليعقوبي ٢٠٦/٢.

[4] المسعودى ٤/ ٣١٠.

[5] المسعودى ٤/ ٢٩٥.

[6] الطبري: القسم الثاني ص ٩٢.

[7] الطبري: القسم الثاني ص ٢٢، وانظر المسعودى ٤٦/٥ واليعقوبى ٢٦٥/٢.

[8] ابن عبد ربه ٢٩٨/٣.

[9] أغاني (طبع بولاق) ١٣/ ١٥٠.

[10] انظر ابن عبد ربه ١٤٠/٣، الأغاني ١٢٢/١٤ حيث يرجع أبو الفرج المسألة إلى سبب شخصى!

وبينما نرى يزيد يصنع ذلك إذا بنا نجد معاوية يرسل إلى مروان بن الحكم واليه على المدينة أن يجلد أخاه عبد الرحمن كما يجلد عبد الرحمن بن حسان مائة سوط، حتى تنطفئ هذه النار التي يؤججانها في المدينة. ولبى مروان أمر معاوية فضرب ابن حسان مائة، وضرب أخاه خمسين، وبعث إلى ابن حسان بحلة، وسأله أن يعفو عن الخمسين الأخرى، فرضى عبد الرحمن بن حسان وقال، وشاع قوله في المدينة: ضربني حد الحر وضربه حد العبد[1].

كانت المدينة موالية لمعاوية إذن عن قهر وموجدة، فلما توفى معاوية وانتقلت الخلافة إلى ابنه يزيد أخذت تتحين الفرص للخروج عليه، وحدث أن أرسل إليها بعثمان بن محمد بن أبى سفيان، وهو فتى غر لم تحنكه التجارب. حينئذ نجد المدينة تنتهز الفرصة فتثور على يزيد، وتخرج عامله عثمان هو وبنى أمية جميعاً من المدينة إلى الشام وتتبعهم ترميهم بالحجارة[2]. وقد رجعت فبايعت عبد الله ابن حنظلة الغسيل[3]. ولما علم يزيد أرسل إليها مسلم بن عقبة في خمسة آلاف، فأوقع بأهلها وقعة الحرة المشهورة[4]، وقد قُتل فيها خلق كثير[5]، ودخل مسلم المدينة وأباحها جيشه ثلاثة أيام[6]، فنهبت الأموال وهتكت الحرمات، وفى أثناء ذلك أخذت البيعة ليزيد من الناس على أنهم عبيد له[7]. وبعث مسلم برؤوس أهل المدينة إلى سيده، فلما ألقيت بين يديه جعل يتمثل بقول ابن الزبعرى يوم أحد[8].

ليت أشياخى ببدرٍ شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسلْ[9]

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ... ولقالوا ليزيد لا فَشَلْ

---

[1] أغاني ١٢٣/١٤ وما بعدها.

[2] انظر اليعقوبى ٢٩٧/٢ وأغانى طبع دار الكتب ٢٣/١.

[3] الطبري: القسم الثاني ص ٤٠٣ وابن سعد ٤٧/٥.

[4] انظر في وقعة الحرة الطبري: القسم الثاني ص، ٤٠٥ وما بعدها.

[5] انظر كلمة حرة في معجم البلدان لياقوت إذ يذكر أنه قتل من الأنصار ١٧٠٠ ومن المهاجرين ١٣٠٠ غير من قتل من الموالى وكانوا خمسة آلاف.

[6] الطبري: القسم الثاني ص ٤١٨.

[7] اليعقوبي ٢٩٨/٢.

[8] ابن عبد ربه ٣١١/٢ وانظر ابن سلام ص ٨٩ وابن هشام ١٤٣/٣.

[9] الأسل: ا لرماح

ولم يلبث يزيد أن توفى، فدخلت المدينة في طاعة ابن الزبير، واستمرت موالية له حتى قتل، فاضطرت راغمة أن تذعن للأمويين من بيت مروان بن الحكم. وقد زارها عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ.، فأغلظ لأهلها في القول، وقام خطباؤه فصنعوا مثل صنيعه[10]. ورماها بهشام بن إسماعيل المخزومي سنة ٨٢ هـ.، فأساء السيرة، وجار في الأحكام، وتحامل على آل رسول الله[1]، وتعرض لسعيد ابن المسيب فقيه المدينة، وكان يبغض خلفاء بنى أمية، فضربه ستين سوطاً ظلماً وعدواناً، وطاف به[2].

وحج الوليد سنة ٩١ هـ.، فمر بالمدينة، لينظر إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وما أصلح منه، ولقيه أشرافها لقاء حسناً، وقسم فيهم عطاءه، ومع ذلك خطبهم فتوعدهم قائلاً لهم: إنكم أهل، الخلاف والمعصية، فقام إليه قوم فكلموه، فقال ما نجهل ما تقولون، ولكن في النفوس ما فيها[3] وقد ولى عليها أول الأمر عمر بن عبد العزيز ثم عزله، وول عثمان بن حيان المري، وكانت فيه شدة، فطلب إليه أن يفرق من فيها من أهل الأهواء[4].

ونرى من كل ما سبق أن المدينة كانت موطناً من مواطن معارضة الأمويين، وقد قسوا على أهلها كثيراً في معاملتهم تارة بتوجيه الجيوش إليهم، وتارة بإقامة ولاة يبطشون بهم. واستمرت المدينة مغاضبة لهم طوال خلافتهم، لا تنسى خصومتهم، وما أذاقوها من سؤ العذاب.

٥

ثراء وحضارة

رأينا المدينة في عصر الخلفاء الراشدين تصبح عاصمة الإمبراطورية الإسلامية فقد اجتاح العرب بلاد الفرس كما اجتاحوا بلاد الشام ومصر، وقد أخذت الأموال تسيل إلى المدينة منذ ولى الأمر أبو بكر حتى من داخل الجزيرة نفسها، فقد كان أول مال قسمه أبو بكر في الناس

---

[10] ابن عبد ربه ٢/٣٣٩.

[1] اليعقوبي ٢/٣٤٠.

[2] اليعقوبي ٢/ ٣٢٧.

[3] الطبري: القسم الثاني ص ١١٦٩

[4] الطبري: القسم الثاني ص ١٢٦٠

ما وجه به العلاء الحضرمي من فتح بعض نواحي البحرين، وقد فرقه في الناس جميعاً أحراراً وعبيداً ديناراً لكل إنسان[5] وأخذت أموال الفَيء تنهال على المدينة بعد ذلك من فارس والشام، فكان أبو بكر يقسم بين الناس بالسوية ولا يفضل أحداً على أحد[6].

ولما جاء عمر جاءته كنوز الأرض مما كان يفتحه العرب، فكان يوزع هذه الكنوز على المسلمين. روى الرواة أن أبا هريرة وفد عليه من البحرين في أول خلافته فقال له: ما جئت به؟ قال جئت بخمسمائة ألف، قال: هل تدرى ما تقول؟ قال: مائة ألف ومائة ألف وعد خمساً، فخطب عمر في الناس: إنه قدم علينا مال كثير، فإن شيءتم أن نعده لكم عدا، وإن شيءتم أن نكيله لكم كيلاً[1]. وبلاد البحرين ليست أهم بلاد الإمبراطورية الإسلامية حينئذ، وما جاء منها لا يعدل شيئاً مما أخذه المسلمون في حروبهم من بلاد فارس، وما أفاء الله عليهم من الغنائم في الشام ومصر. وقد روي أن الأسلاب قسمت بعد موقعة القادسية التي قُتل فيها رستم فبلغ سهم الفارس أربعة عشر ألفاً، وسهم الراجل سبعة آلاف ومائة[2]. ويقال إن خراج سواد الكوفة وحدها من بلاد العراق بلغ في خلافة عمر ثمانين ألف ألف في درهم في أحد الأعوام، وفى العام الذي يليه بلغ عشرين ومائة ألف ألف درهم، وكان صاحب الكوفة يحمل إلى المدينة من هذا الخراج نحو عشرين أو ثلاثين ألف ألف[3] ويقول ابن الطقطقي: "لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة في خلافة عمر رأى أن الفتوح قد توالت، وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت، وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم، ولم يكن يعرف كيف يصنع، وكيف يضبط ذلك، وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس، فلما رأى حيرة عمر قال له: يا أمير المؤمنين! إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه، لا يشذ منه شيء، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب، لا يتطرق عليها خلل، فتنبه عمر وقال: صفه لى، فوصفه المرزبان، ففطن عمر لذلك، ودون الدواوين، وفرض العطاء، فجعل لكل واحد من المسلمين

---

[5] اليعقوبي ١٥١/٢.

[6] اليعقوبي ١٥٤/٢.

[1] البلاذري ص ٤٥٣

[2] اليعقوبي ١٦٥/٢

[3] اليعقوبي ١٧٤/٢.

نوعاً مقرراً، وفرض لزوجات الرسول صلى الله علبه وسلم ولسراريه وأقاربه[4]. وقد بدأ عمر في الديوان بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وبقية بنى هاشم، ثم الأقرب فالأقرب إلى النبي، وفرض للناس بحسب السابقة في الإسلام، ففرض لأهل بدر- خمسة آلاف، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف، في ذلك من شهد الفتح وقاتل... ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين، وفرض لأهل البلاء البارح منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة... وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً... وأعطى نساء النبي عشرة آلاف عشرة آلاف... وجعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة، ونساء من بعدهم إلى الحديبية في أربعمائة أربعمائة، ونساء من بعد ذلك إلى القادسية في ثلثمائة ثلثمائة، ونساء أهل القادسية في مائتين مائتين، ثم سوى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء في مائة مائة[1].

وإنما سقنا ذلك لندل على مدى ما كان يصيبه أهل المدينة من أموال في عصر الخلفاء الراشدين. وهذا غير ما كان يجلبه الذين اشتركوا منهم في الحرب والفتوح واستمرت موجة هذه الفتوح والحروب في ارتفاعها طوال حكم عمر، حتى إذا كان عصر عثمان أخذت تتوقف، ومع ذلك فالبلاذري يروى أن عبد الله ابن سعد بن أبى سرح صالح بطريق إفريقية بعد فتحها في عهد عثمان على ثلثمائة قنطار من الذهب، وقدر ذلك بعض المؤرخين بمليونين ونصف من الدنانير[2]. ويقال إن عثمان أمر لمروان بن الحكم بخمس هذا المال[3].

ولم تدخل هذه الأموال في المدينة وحدها منفصلة عن كل ما كان يتصل بها في البلاد الأجنبية، بل لقد دخلت ومعها الرقيق الذي كان يسبى في الحروب من رجال ونساء. وأول رقيق دخل المدينة كان في عهد عمر، إذ أرسل إليه معاوية بأربعة آلاف من سبى قَيسارية[3]، ودخل المدينة بعد ذلك رقيق آخر كثير. وما من ريب في أن هذا الرقيق كان يفهم من الحضارة ألواناً لا يفهمها أهل المدينة القدماء، وقد كان منه فرس وشاميون وأفريقيون فأخذوا

---

[4] الفخري (طبع أوروبا) ص ١٠١.

[1] الطبري: القسم الأول ص ٢٤١٢ وما بعدها.

[2] البلاذري ص ٢٢٧.

[3] اليعقوبي ١٩١/٢.

[3] البلاذري ص ١٤٢

يؤثرون في حياة أهل المدينة تأثيراً عميقاً وهو تأثير بدأ طفيفا أول الأمر، وخاصة في عصر عمر، إذ كان يدعو إلى الارتباط بالحياة القديمة وعدم الانفصال عنها[4].

ونحن لا نترك عهد عمر إلى عهد عثمان حتى نحس أن أهل المدينة تغيروا تغيراً كثيراً عما كنا نعهدهم عليه من تقشف. ويكفى في تصوير ذلك. ما تركه كبار الصحابة من ثروات، فقد روى الرواة- إن صح ما يروونه- أن طلحة بن عبيد الله خلف ثلثمائة بهار من ذهب وفضة، والبهار مزود من جلد عجل[5]، ويقول المسعودى- إن صح ما يقول-: إن الزبير خلف خمسين ألف دينار، بينما خلف زيد بن ثابت مائة ألف دينار، ومات يعلى بن منية عن خمسمائة ألف دينار، وديون وعقارات قيمتها ثلثمائة ألف دينار، وبلغ الربع في تركة عبد الرحمن بن عوف أربعة وثمانين ألف دينار. أما عثمان فقد خلف خمسين ومائة ألف دينار، وألف ألف درهم، وعقارات قيمتها مائة ألف دينار. وقد عقب المسعودى بعد ذكره لهذه التركات بقوله: وهذا باب يتسع ذكره، ويكثر وصفه، فيما تملك من الأموال في أيام عثمان، ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب... وحج عمر فأنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً وقال لولده عبد الله: قد أسرفنا[1] وهذا إن صح إنما هو نمو طبيعي للأموال التي انهالت على المدينة في عصر عمر، وما جناه قواد الحرب من غنائم في أثناء الفتوحات.

على كل حال اتسع ثراء المدينة منذ عثمان، واتسعت معه الرفاهية، أو أخذت تظهر الرفاهية، ولم تكن معروفة في عصر عمر كما يلاحظ ذلك المسعودى وكان من مظاهر هذه الرفاهية الواضحة اتخاذ القصور وبناؤها بالآجر والجص واتخاذ أبوابها من الساج وبدأ ذلك- فيما يقال- عثمان الخليفة نفسه[2]، وتبعه أعيان أهل المدينة من مثل سعد بن أبى وقاص، وطلحة، والمقداد، وعبد الرحمن ابن عوف أما سعد فيقال إنه ابتنى له داراً بالعقيق، رفع سمكها ووسع فضاءها، وجعل على أعلاها شُرفات، وأما طلحة فيقال أيضاً إنه ابتنى له دارا بالجِص والآجر والساج، وأما المقداد فكانت داره بالموضع المعروف بالجرف على أميال من

---

[4] العقد الفريد لابن عبد ربه ١٨/١ وانظر الوزراء والكتاب للجهشيارى طبعة الحلبي ص ١٩ وكذلك الطبري: القسم الأول ص ٢٧٤٧.

[5] ابن عبد ربه ٢٧٩/٢.

[1] انظر مروج الذهب ٢٥٣/٤ وما بعدها.

[2] نفس المصدر ٢٥٣/٤.

المدينة، وجعل على أعلاها شرفات، وصيرها مجصصة الظاهر والباطن، وكذلك بني عبد الرحمن بن عوف له داراً كبيرة[٣].

ونحن لا نمضي في العصر الأموي حتى نجد أولاد الصحابة يخلفونهم على هذا الثراء وهذه الأموال والقصور، وقد دون عمر ديوان العطاء وأصبح لكل شخص في المدينة عطاء مميز به وانتقلت عاصمة الخلافة إلى دمشق ومع ذلك ظلت المدينة لا تجرم من فيء الفتوح، فقد روى عن الوليد بن عبد الملك الذي فتحت في عهده الأندلس، كما فُتح شطر كبير من الهند، أنه زار المدينة، وقسم فيها رقيقاً كثيراً بين الناس، كما قسم آنية من الذهب والفضة وأيضاً فإنه قسم أموالا[٤] ومعروف أن معاوية وضع نصب عينيه استرضاء خصومه بالمال، فكان يكثر من عطاياه علي كل من يفد عليه من المدينة وتبع معاوية غيره من خلفاء بنى أمية في هذا التقليد، فكانوا يجيزون من يفد عليهم جوائز سنية، يريدون بذلك أن يصطنعوهم لأنفسهم، وأن يتقوا موجدتهم وغضبهم وكان بيت بنى هاشم على رأس البيوت التي تُستقبل استقبالاً كريمة في دمشق، فكان معاوية إذا وفد عليه أحد منهم وصله بالجوائز[5]، ويروى أن الحسن وفد عليه فأجازه بمائة ألف[1]، وقبل ذلك حين صالحه جعل له ما في بيت وخراج دار ابجرد، فأخذ ما في بيت ماله في الكوفة، وكان فيه خمسة آلاف ألف[2].

وذهب معاوية، وجاء يزيد، فاستن سنة أبيه في اصطناع الناس بالمال، وقد أعطى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أربعة آلاف ألف[3]، وبعث إليه عثمان بن محمد بن أبى سفيان عامله على المدينة وفداً منها، فأحسن إليهم، وأعظم جوائزهم، وأعطى كلا منهم مائة ألف درهم[4]، ووفد عليه عبد الله بن حنظلة زعيم الأنصار في المدينة ومعه ثمانية بنين فأعطاه مائة ألف درهم، وأعطى بنيه لكل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وما حملهم عليه[5].

---

[3] مروج الذهب للمسعودى ٢٥٤/٤ وما بعدها وانظر الطبري: القسم الأول ص ٢٨٦٠ حيث يذكرن بناء الدور في هذا العهد بلغ سلعاً.

[4] الطبري: القسم الثاني ص ١٢٣٣.

[5] الفخري ص ١٢٧.

[1] ابن عبد ربه ١٤٥/١.

[2] الطبري: القسم الثاني ص ٤.

[3] ابن عبد ربه ١٤٥/١.

[4] الطبري: القسم الثاني ص ٤٠٢.

[5] المصدر نفسه: القسم الثاني ص ٤٢٢.

ولما تبعت المدينة عبد الله بن الزبير كان شحيحاً.، ولكن أخاه مصعباً كان جواداً كريماً، فلما ولاه أخوه على العراق كان يصل أهل المدينة، وقد أعطى عاصم بن عمر ستة عشر ألف دينار، وأعطى عبد الله بن جعفر ضعف ذلك[6] ويروى أنه أهدى صديقاً له في المدينة وهو عبد الله بن أبى فروة كنزاً وجده عامله في خراسان، وهو نخلة كانت لكسرى مصنوعة من الذهب عثاكيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر وأخضر، وقد قومها المقومون لمصعب بألفي ألف دينار فكان ابن أبى فروة أيسر أهل المدينة[7].

ولما استقامت الخلافة لبنى مروان أخذوا يقطعون ألسنة الناس وعلى رأسهم أهل المدينة بالمال، وكان خلفاؤهم يذهبون أحياناً إليها ويقسمون فيها قسماً كثيرة على نحو ما صنع الوليد كما مر آنفا، وقد زارها سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ هـ. فقسم فيها أموالاً وفرض لقريش خاصة أربعة آلاف فريضة[8].

ومهما يكن فإن كثيرين من أهل المدينة اتسع بهم الثراء في العصر الأموي اتساعاً شديداً، إما بفضل ما جاءت به الفتوح آباءهم قديماً، ونموه، حديثاً، وإما بفضل ما كان يصب في حجورهم من خزائن دمشق، وقد كان ديوان العطاء مدداً مستمرا لا ينفد، ولم يرو أنه انقطع عنهم ما يأتيهم منه، إلا سنة واحدة في عصر هشام بن عبد الملك. فإنه منعهم عطاءهم حين خرج عليه زيد بن على، ولكنه لم يلبث أن توفى فأعاده عليهم الوليد بن يزيد[1].

كان أهل المدينة في يسار ونعمة طوال هذا العصر الأموي، بل كان كثير منهم ثريا واسع الثراء، وكان "يقترن بهذا الثراء ضروب واسعة من الحضارة لم تعرفها المدينة قبل هذا العصر. وفرق بين حضارة سكان المدينة في هذا العصر، وهم الذين تعود أصحاب الحديث أن يسموهم بالتابعين، وسكانها في عصر الخلفاء الراشدين، وهم الذين تعود أصحاب الحديث أيضاً أن يسموهم بالصحابة. وحقاً أن الصحابة اطلعوا على ما عند الأمم الأجنبية واقتبسوا منهم، ولكن اقتباسهم كان محدوداً جدا، وخاصة قبل عصر عثمان. وبدأ هذا الاقتباس يتسع في عصر عثمان، فبنى بعض! الصحابة الدور والقصور، ولكنه كان على كل حال اقتباساً في

---

[6] الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٤٦.

[7] الجهشياري ص ٤٤.

[8] اليعقوبي ٣٥٨/٢.

[1] أغاني طبع دار الكتب ٢٢/٧.

حدود ضيقة. أما في هذا العصر الأموي فقد نشأ جيل آخر لم تكن له صلة بالجاهلية ولا بالحياة القديمة إلا ما يروى من أخبارها، أما صلته كلها فبالحضارة الأجنبية التي دخلت كل شيء في حياته، وهو جيل التابعين، وكان خليطاً من العرب والموالى[2]، وهم جماعة من الأجانب الذين سبوا في الفتوح هم وأبناؤهم، وكانوا كثيرين في المدينة منذ كانت الفتوح في عهد أبى بكر وعمر، وقد ترك الزبير بن العوام وحده منهم ألف عبد وأمة[2]، وكان غيره من الصحابة تكتظ بيوتهم بهم.

وكان هؤلاء الموالى يشتركون في حياة المدينة، سلمها!وحربها، ففي وقعه الحرة قُتل منهم خمسة آلاف، وفى السم كانوا ينهضون بإعداد ا الحياة لهؤلاء الأنصار والمهاجرين، إذ كانوا يقومون على خدمتهم! يقول ابن خلدون (لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة، فقد حكي أنه قدم لهم المرقّق، فكانوا يحسبونه رقاعاً، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى، فاستعملوه في عجينهم، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم، واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله، والتفنن فيه، مع ما حصل لهم من اتساع العيش، والتفنن في أحواله، فبلغوا الغاية من ذلك، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفرش والآنية سائر الماعون والخُرثَي. فأتوا من ذلك وراء الغاية)[1].

وقد حجز ابن الخطاب أهل المدينة دون هذه الحضارة التي جلبوها من الخارج[4]، إذ كان يكره للعرب من سكان المدينة وغيرهم أن يأخذوا بأسباب الحضارة الأجنبية، وأن ينعموا بملذاتها في المطعم والمشرب والمسكن، ولكن لا يذهب عمر، حتى نجدهم يقبلون على هذه الحضارة وما تستتبعه من رفاهية، وقد بدءوا ذلك منذ عثمان، فاتخذوا الدور والقصور على ما مر في غير هذا الموضع، وكلما تقدم بهم الزمن ازدادوا في الأخذ من هذه الحضارة والرفاهية.

---

[2] انظر ابن سعد: الجزء الخامي حيث يترجم أولاً للتابعين من قريش والأنصار في المدينة ثم يترجم للموالي.

[2] المسعودى ٤/٢٥٤.

[1] مقدمة ابن خلدون (طبع بولاق) ص ١٤٤.

[4] انظر ابن عبد ربه ١/٧ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد طبع القاهرة ١٠١/٣.

ونحن لا نكاد نمضي في العصر الأموي حتى نجد أهل المدينة يضربون في الحضارة الأجنبية بحظ بل بحظوظ، فعرفوا كثرة الألوان في الأطعمة[1]، وأكلوا في أواني الذهب والفضة[2].

وكما عرف أهل المدينة التنعم في المطعم عرفوا التنعم في الملبس فاتخذوا الخز والديباج والإستَبرق. ومن طريف ما يروى عن السيدة عائشة أنها سئلت عن ثوبها في زمن الرسول، فقالت: أما والله ما كان خَزا ولا قَزا ولا ديباجاً ولا قطناً ولا كتاناً... إنما كان سداه من شعر، ولحمته من أوبار الإبل[3].

تغيرت ثياب نساء المدينة فكن يلبسن الديباج والحرير[4]، والقطن والكتان، وكن يلبسن الثياب المعصفرة، والثياب الرقيقة الشفافة. ولم يقف الأمر في ذلك عند النساء فقد أخذ الرجال يلبسون المضرجات والممصرات والملونات[5]، ويروى أن أول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم[6]، وكان فتية بنى مروان يرفلون في القوهي والوشي كأنهم الدنانير الهرقلية[7]، واشتهر عبد الله بن جعفر بلبس الخز[8]، وكان مروان بن أبان بن عمان يلبس سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض، وفوقها رداء عدني بألفي درهم[9]، وكان عمر بن عبد العزيز، وهو وال على المدينة، يلبس الثوب بأربعمائة، فيقول: ما أخشنه وأغلظه[10].

وكانوا يتخذون الطيب ويكثرون منه، ومما يدل على مدى اتخاذهم له ما يروى عن هارون بن صالح عن أبيه أنه قال: "كنا نعطى الغسال الدراهم الكثيرة حتى يغسل ثيابنا في إثر ثياب

---

(1) المستطرف للأبشيهي طبع المطبعة العثمانية بمصر ١٦٢/١.

(2) ابن عبد ربه ١/ ١١١ وانظر ابن سعد١٢٦/٤.

(3) ابن عبد ربه ٣٩٤/١.

(4) ابن سعد ٣٥٢/٨.

(5) أغاني طبع دار الكتب ١٣/٦ وانظر طبعة بولاق ٢٠٤/١٨.

(6) المعارف لا بن قتيبة (طبع جوتنجن) ص ٢٧٤.

(7) أغاني طبع دار الكتب ٣١٠/١.

(8) أغاني طبع بولاق ٧٦/١١

(9) أغاني ٨٩/١٧.

(10) ابن سعد ٢٤٦/٥.

عمر بن عبد العزيز من كثرة الطيب فيها يعنى المسك[11]"، وكان ذلك في ولايته على المدينة وقبل أن يتزهد، وعمر إنما كان يجارى شباب المدينة في طيبه ومسكه.

وعلى نحو ما بالغ أهل المدينة لعصر بنى أمية في ملابسهم وطيبهم بالغوا في حليهم وجواهرهم فكان النساء يتحلين! باللؤلؤ والياقوت[1]، واشتهرت السيدة عائشة بنت سعد ابن أبى وقاص بزينتها من قلائد الذهب[2]، كما اشتهرت السيدة سكينة بنت الحسين بأنها كانت تثقل ابنتها بالحلي واللآلئ[3] وقلد الرجال النساء، فكانوا يتخذون مثلهن الحلي والجواهر[4].

ولا شك أن هذا كله إنما تَم تحت تأثير الحضارة الجديدة التي دخلت المدينة، والتي أخذ أهلها يغرقون فيها إلى آذانهم، فهم يرصعون حياتهم ويحيلونها حلية وزينة خالصة.

٦

ترف

تحضر أهل المدنية كما رأينا، وأدي بهم هذا التحضر إلى ترف واسع في العصر الأموي، وماذا ينقصهم ليكونوا مترفين؟ إن المال تحت أيديهم، وهم يصيبون منه ما يريدون، وهم يتنعمون به ما شاءوا من ألوان النعيم.

ونحن لا نستطيع الآن أن ندرك إدراكاً دقيقاً ما كان عليه القوم من ترف، لأن النصوص التي تمثل ذلك في الأغاني والطبري وغيرهما قليلة، وإن ألمت بشخص تركت أشخاصاً، وإن ألمت ببيت تركت بيوتاً. وما من ريب في أن بيوت بنى هاشم وبنى أمية والزبريين والمخزوميين دخلها الترف"، فبين أيديها المال الكثير الذي يهيئ لها كل ما تريد. ولعل مما يصور ذلك ما يروى عن حمزة بن عبد الله ابن الزبير من أن ابن قيس الرقيات وفد عليه فأعطاه أربعة آلاف دينار[5] واقترض منه ابن قطن مولى معبد ألف دينار ثم جاء يردها إليه

---

[11] أغاني طبع دار الكتب ٢٦٢/٩.

[1] أغاني ٢٧٣/٨.

[2] ابن سعد ٣٤٣/٨.

[3] أغاني طبع بولاق ١٦٨/١٤

[4] أغاني طبع دار الكتب ٢٧٨/٨.

[5] أغاني طبع دار الكتب ٩٣/٥.

فأبى أن يأخذها[6]، وكان معبد منقطعاً إليه يغنيه فيما يمدحه به الشعراء[7]. وأمثال حمزة من الأثرياء المترفين في المدينة كثير، ولعل خير من يمثلهم في هذا العصر عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب، وكان جواداً سمحاً، فكان يعطى الشعراء عطايا كثيرة. ويقول صاحب الأغاني إن أهل المدينة كان يقترض بعضهم من بعض إلى أن يأتي عطاؤه[8] ويقول الرواة إن الحجاج تزوج ابنته فأمهرها تسعين ألف دينار[9]، أي نحو خمسين ألف جنيه، وهو صداق لا تستطيع بنات الأثرياء ثراء واسعاً أن تشرئب أعناقهن إليه في هذا العصر.

وكان عبد الله على ما يظهر مترفاً في حياته، حدث صاحب الأغاني أن عبد الملك بن مروان منع ابن قيس الرقيات عطاءه من بيت المال، وطلبه ليقتله، فاستجار بعبد الله بن جعفر، وقصده فألفاه نائماً، ولما كان صديقاً لسائب خاثر (المغنى مولى ابن جعفر)، وطلب الإذن على ابن جعفر فتعذر، جاء سائب خاثر ليستأذن له عليه، قال سائب: فجئت من قبل رجل عبد الله بن جعفر فنبحت نباح الكلب الهرم، فانتبه، وفتح عينيه، فرآنى، فقال: مالك ويحك؟! فقلت: ابن قيس الرقيات بالباب، فقال: ائذن له، فأذنت له فدخل إليه، فرحب ابن جعفر به وقر به فعرفه ابن قيس خبره، فدعا بظبية (جراب) فيها دنانير وقال: عد له منها فجعلت أعذ وأترنم وأحسن صوتي بجهدي حتى عددت ثلثمائة دينار فسكت فقال لي عبد الله مالك ويلك سكت؟! ما هذا وقت قطع الصوت الحسن فجعلت أعد حتى نفد ما كان في الظبية! وفيها ثمانمائة دينار فدفعتها إليه[1].

أرأيت إلى هذه الحادثة الطريفة؟ إنها تصور لنا ترف العصر، فهذا ابن قيس الرقيات لا يستطيع أن يدخل بيت ابن جعفر إلا بعد استئذان، وهو يستأذن عليه فيتعذر لقاؤه له، فيأتي مولى له يألفه كي يدخله عليه. ويقبل سائب خاثر فيجد ابن جعفر نائماً، فيصطنع معه أسلوباً يدل على ما كان به من ترف. إن ابن قيس الرقيات بالباب، وسائب خاثر يخشى أن يعلم به والى المدينة، فيأخذه إلى عبد الملك، كي يقضى فيه ما هو قاض، ليس أمامه إلا أن يوقظ ابن جعفر ولكن كيف يوقظه؟ لقد أتاه من قبل رجله فنبح نباح الجر و الصغير فأنتبه! ابن جعفر

---

[6] المصدر نفسه ٣/٣٦٤.

[7] المصدر نفسه ٥/١٠٣.

[8] أغاني طبع بولاق ١١/٦٩.

[9] ابن عبد ربه ٣/٢٩٣.

[1] أغاني طبع دار الكتب ٥/٨١.

ولم يفتح عينيه، وركله برجله، فأتاه من قبل رأسه، ونبح نباح ا لكلب الهرم، فانتبه، وفتح عينيه، حينئذ حدثه بخبر ابن قيس.

وما أرتاب في أننا لوسمعنا هذا الخبر في عصرنا يحكى عن شخص مترف لعجبنا عجباً شديداً ولذهبنا نتخيل صوراً كثيرة عن ترفه. وأجار عبد الله بن جعفر صاحبه، ولم يكتف بذلك بل أخذ يهدئ من روعه بالذهب يلقيه في حجره بتلك الصورة من عد سائب خاثر وغنائه على عده. وأكبر الظن أن ابن جعفر لم يكن بدعاً في عصره، بل كان يستن بترف قومه.

وكما كان الرجال مترفين كانت النساء مترفات، ولعل ترفهن كان أوسع من ترف الرجال بعامل ما في طبع المرأة من ميل إلى التأنق والزينة. وخير من يمثل نساء المدينة المترفات في هذا العصر سيدتان من أنبل السيدات، هما: السيدة عائشة بنت طلحة ثم السيدة سكينة بنت الحسين.

وكانت السيدة عائشة عند عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر، ثم توفّي، فتزوجها مصعب بن الزبير، وأمهرها ألف ألف درهم[١]، وتوفّي عنها، فتزوجها عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، ومات عنها ولم تتزوج بعده[٢]، وكانت إذا حجت ذهبت ومعها ستون بغلاً عليها الهوادج والرحائل، فتعرض لها عروة بن الزبير فقال:

عائشُ ياذات البغالِ الستّين　　أكلَّ عام هكذا تحجين

فأرسلت إليه نعم يا عرية[٣] ويروى أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية استأذنت عبد الملك في الحج فقال لها: "ارفعي حوائجك واستظهري، فإن عائشة بنت طلحة تحج، ففعلت، فجاءت بهيئة جهِدتْ فيها، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها، وفرق جماعتها، فقالت: أرى هذه عائشة بنت طلحة، فسألت عنها، فقالوا هذه خازنتها، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك، فقالوا: عائشة عائشة، فضغطهم، فسألت عنه، فقالوا هذه ماشطتها، ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سننها، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلثمائة راحلة، عليها القباب والهوادج، فقالت عاتكة ما عند الله خير وأبقى"[٤].

---

[1] أغاني طبع بولاق ٥٨/١٠.

[2] أغاني طبع دار الكتب ٣٨٠/٢.

[3] أغاني ٦٠/١٠.

[4] أغاني ٦٠/١٠.

وإذا كانت بنت الخليفة يزيد حفيدة معاوية لا تبلغ مبلغ عائشة بنت طلحة في زينتها وهيئتها فماذا كانت هذه الهيئة والزينة؟ إننا لوسمعنا في هذا العصر أن أميرة تحج على هذا النحو لهب المصورون من آفاق العالم يأخذون صورها ويذيعونها على الصحف. وقد قالوا إن مصعباً أهداها ثماني حبات من اللؤلؤ قيمتها عشرون ألف دينار، فلما دخل عليها ليقدم هديته وجدها نائمة، فأيقظها، فلما رأت الهدية لم تُعن بها، وقالت: كان النوم أحب إلي[٥]. وقد روى أنها لما تأيمت كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة، وتخرج إلى"مال لها بالطائف عظيم وقصرلها، فتتنزه وتجلس فيه بالعشيات، فتناضل بين الرماة، ثم يفد عليها الشعراء فتجيزهم[6]. وكانت تشركها في كثير من جوانب هذه الصورة المترفة السيدة سكينة بنت الحسين، كانت قد تزوجت عبد الله بن الحسن بن على، وهو أول أزواجها[7] ولما قتل مع أبيها تزوجت بعده مصعب بن الزبير، فأمهرها ألف ألف درهم[8] ولما قتل تزوجت عبد الله بن عثمان الخزامي، ثم زيد بن عمرو بن عثمان، ثم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان[9].

ويقول صاحب الأغاني: "كانت السيدة سكينة عفيفة برزة من النساء تجالس الأجلة من قريش، ويجتمع إليها الشعراء[1]". ويقول أيضاً: "إنها كانت أحسن الناس شعراً، وكانت تُصفّف جمتها تصفيفا لم ير أحسن منه، حتى عرف ذلك، وكانت تلك الجمة تسمى السكَينية، وكان عمر بن عبد العزيز- في ولايته على المدينة- إذا وجد رجلاً يصفف جمته السكينية جلَده وحلَقه"[2].

وكان للسيدة سكينة ذوق جيد في الشعر، فكانت تنقد الشعراء وتفاضل بينهم[3] وكان أشعب مضحك أهل المدينة يختلف إليها كثيراً لإضحاكها وجلب السرور إليها[4].

---

[5] المصدر نفسه ٥٧/١٠.

[6] أغاني ٦١/١٠.

[7] أغاني ١٦٨./١٤

[8] المصدر نفسه ١٦٨/١٤ والمعارف لأبن قتيبة ص ١٢٠.

[9] انظر في أزواجهاالأغاني١٦٨/١٤ وما بعدها.

[1] أغاني ١٤/ ١٦٥.

[2] أغاني في ١٦٥/١٤

[3] أغاني١٤/١٧٣.

[4] أغاني١٤/١٦٨.

ومن خير ما يصور ترفها ما يروى عنها من أنها حجت، ورمت الجمار، فسقطت من يدها الحصاة السابعة، فرمت بخاتمها![9]. ويروى أنها استبدلت مالها بالزوراء بقصر في العقيق يسمى البريدي، فلما سال العقيق خرجت ومعها جواريها تمشى حتى جاءت السيل، فجلست على جرفه، ومالت برجليها في السيل، ثم قالت: والله لهذه الساعة في هذا القصر خير من الزوراء[٩]. ويروى الرواة أنها توفيت فلم تدفن في اليوم نفسه فاشتروا لها عوداً من الطيب بأربعمائة دينار ظل مشتعلا بجوارها طوال الليل[10] حتى يعبق الجو من حولها بالأريج العطر. وأكبر الظن أن ما يروى عن السيدة سكينة إنما هو رمز لترف البيئة، فقد كانت المدينة، رجالها ونساؤها في العصر الأموي، غارقة في ألوان الترف وأصباغ النعيم.

٧

بعض فنون اللهو

وهذه الحياة المترفة لأهل المدينة في العصر الأموي اقترن بها فراغ واسع، إذ كانت الدولة منصرفة عنهم، فقلما استخدمتهم في شيءونها، لما عرفت فيهم من معارضتهم لها. وهذا الفراغ، أو قل هذا التعطل كان لا بد لهم أن يملئوه، وقد ملأته كثرتهم بفنون من اللهو المختلفة، وكان الغناء على رأس هذه الفنون، فإن أهل المدينة شغفوا به في هذا العصر شغفاً شديداً، وقد نماه لهم مواليهم الذين كانت تكتظ بهم بيوتهم، وسرعان ما نجد في المدينة دوراً خاصة بالغناء يقصد إليها الناس لسماعه. ولم يكن الغناء كل ملاهيهم، فقد لهوا بطيران الحمام وبالرمى على الجلاهقات، وهي قوس البندق[1]، كما لهوا بالنرد[2.] والشطرنج[3].

وطبيعي أن تشيع بعض فنون اللهو في المدينة بعامل ما كان هناك من فراغ ثراء وتحضر وطرف. وشاع حينئذ لهو من نوع آخر، وهو نوع لايشيع إلا بعد أن تتحضر الأمة أو المدينة من المدن، وتترف، فيوجد من أبنائها من يتخذون أناسا يضحكونهم ويملئون جوهم بالسرور.

---

[9] أغاني ١٤/١٧٢

[9] أغاني ١٤/١٧٢

[10] أغاني١٤/١٧٨.

[1] تاريخ الخلفاء للسيوطي (طبع المطبعة الميمنية) ص٦٤.

[2.] أغاني طبع بولاق ١٧/١٠٢.

[3] أغاني طبع دار الكتب ٤/٥٢.

وكان أشعب مضحك المدينة في هذا العصر وقد بدأ حياته في بيت السيدة عائشة بنت عثمان، ويقال إنها دفعته إلى البزازين فمكث عندهم حولا فسألته بعد الحول عما تعلمه، فقال لها: تعلمت نصف العمل وبقى نصفه ، قالت: وما تعلمت فقال: تعلمت النشر وبقى الطي[4].

وكان يعجب بأشعب أشراف المدينة وشريفاتها فكان يجلس إليهم جميعاً، ويقيم عندهم في دورهم أياماً، وله مع السيدة سكينة نوادر كثيرة. يروى أنها غضبت منه يوما ًفحلفت ليحلقن لحيته ودعت بالحجام فقالت له: احلق لحيته. فقال له الحجام: انفخ شدقيك حتى أتمكن منك، فقال له: أأمرتك أن تحلق لحيتي أو تعلمني الزمر[5]. وكان زوج السيدة سكينة زيد بن عمرو ابن عثمان بخيلاً فكان إذا وضع الأكل وأقبل عليه بعض الناس رفعه، وقال على بالترياق والماء الحار، وتصادف أن صنع ذلك أياماً متتالية، وانصرف الضيوف يوماً، فأحضر الأكل، وكان دجاجاً، فقال: يا أشعب هل إلى إسخان هذا ا لدجاج سبيل؟ فقال له: أخبرني عن دجاجك هذا هل هو من آل فرعون؟ فهو يعرض على النار غُدوا وعشيا[6].

ومما يروى من فكاهاته أن امرأة قالت له: هب لي خاتمك أذكرك به، قال: اذكريني أن منعتك إياه فهو أحب إلي[7]. ويروى أيضاً أن امرأة كان يتودد إليها ويدخل منزلها سألته أن يهديها شيئاً ففر فزعاً ومكث شهرين لا يقرب منزلها، ثم جاءها ذات يوم، فأرسلت إ ليه قدحاً ملآن ماء، وقالت: اشرب هذا من الفزع، فقال: اشربيه أنت من الطمع[8].

وهكذا كان أهل المدينة يتناقلون فكاهات أشعب، كما كانوا يتناقلون فكاهات مضحك آخر يسمى الناضري[9]. ولا شك أنهما كانا يشيعان في المدينة جوا مرحاً، كله الضحك والهزل. وكان كثير من أهل المدينة أنفسهم ومن أشرافها يصنع صنيعهما لا من إضحاك الناس، ولكن من العناية بالفكاهة، وماذا نريد إلى قوم فارغين حجورهم مملوءة بالمال، وكل ما يطلبونه مهيأ لهم. روى صاحب الأغاني أن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طلب كان يعبث بأشعب أشد عبث، وربما أراه في عبثه أنه قد ثمل وأنه يعربد عليه، ثم يخرج إليه بسيف مسلول،

---

[4] أغاني ٨٥/١٧

[5] أغاني ١٠١/١٧.

[6] المصدر نفسه ١٤/ ١٧٢

[7] أغاني ٩١/١٧.

[8] أغاني ٩١/١٧.

[9] أغان ٩٤/١٧.

ويريه أنه يريد قتله، فيجرى بينهما في ذلك كل مستمع[1]. ولم يكن الحسن وحده الذي يذهب هذا المذهب من الهزل، فقد كان أبان بن عثمان والى المدينة لعبد الملك من أهزل الناس وأعبثهم، وبلغ من عبثه أنه كان يجيء بالليل، وهو وال على المدينة، إلى منزل رجل في أعلى المدينة له لقب يغضب منه، فيقول له: أنا فلان ابن فلان، ثم يهتف بلقبه فيشتمه أقبح شتم، وأبان يضحك[2]. وكل ذلك من آثار التحضر الذي تحضرته المدينة وما داخل حياتها من ترف.

---

[1] أغاني ١٠٤/١٧.

[2] أغاني ١٠٢/١٧.

الفصل الثاني

الغناء في المدينة

(١) الغناء في المدينة قديم

عرف العرب قديماً بمحبتهم للغناء، وهناك نصوص كثيرة متفرقة في كتب التاريخ والأدب تشهد بأنهم كانوا يغنون من المهد إلى اللحد، إذ كانوا يرقصون أطفالهم بالغناء[١]، كما كانوا يبكون موتاهم بالنواح[٢]، وهو ضرب حزين من الغناء. وقد اشتهروا بحدائهم للإبل في مسيرهم وترحالهم، كما اشتهروا بأغانيهم في الحروب وأشعارهم الحماسية[٣] ويظهر أنهم كانوا يستخدمون الغناء في عباداتهم ففي القرآن الكريم: (وما كان صلاتُهم عِنْد البيتِ إلاَّ مكَاء وتَصدِيةً) والمكاء الصفير والتصدية التصفيق. ويقول ابن عبد ربه:" إنما كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة"[٤]. ومعنى ذلك أن المدينة كانت إحدى مواطن الغناء المهمة في العصر الجاهلي. ومن هنا لا يكون غريباً أن نسمع بعد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة مهاجراً استقبله أهلها من الأنصار. استقبالًا حافلاً، وقد ألف نساؤهم في أثناء ذلك ما يشبه الجوقات إذ كن يغنين جماعات بالدف والألحان[٥]:

طَلَع الْبدر علينا — من ثَنِياتِ الوداعِ

وجب الشُّكْر علينا — ما دعا للهِ داعِ

---

[1] المسعودى ٨/ ٩٥.

[2] أغاني ٨٩/١٩ ونواح الخنساء على أخيها وأبيها معروف، وكذلك نواح هند بنت عتبة على أبيها وأخيها وعمها، انظر أغاني ٢٢٠/٤.

[3] الطبري: القسم الأول ص ١١١٦.

[4] ابن عبد ربه ٢٤١/٣.

[5] إحياء العلوم للغزالي طبع بولاق ٢٥٤/٢.

وفى طبقات ابن سعد أن الصحابة كانوا يتغنون ببعض الرجز في أثناء حفرهم للخندق في وقعة الخندق المعروفة[١].

وهذه النصوص تؤكد أن الغناء كان شائعاً في المدينة، وأن نساء العرب كن يشتركن فيه على نحو ما صنع نساء الأنصار في استقبال النبي صلى الله عليه وسلم. ونجد بجانب هذه النصوص نصوصاً أخرى تدل على أن القيان عرِفْن في المدينة في أثناء العصر الجاهلي. ومعروف أن القيان كن أجانب، وأنهن استُخْدمن في الغناء حينئذ في مدن الجزيرة العربية، وفى بعض القبائل[٢]. ويرى ليال أنهن كن من الفرس أو من اليونان من سوريا، ويقول إنهن كن يغين بالعربية، وربما كن يغنين بلهجة أجنبية، ويذهب فون كريمر إلى رأى أبعد من ذلك، فيقول أنهن كن يغنين بلسانهن اليوناني أو الفارسي لا باللسان العربي[٣]. وليس بين أيدينا ما يؤيد قول ليال من أنهن كن يغنين بلهجة أجنبية، فضلاً عما يقوله فون كريمر من أنهن كن يغنين بلسانهن الأجنبي، بل على العكس تؤكد جميع النصوص التي رويت في الأغاني وغيره أنهن كن يغنين باللسان العربي، ففي أخبار النابغة أن أهل المدينة أمروا إحدى القيان أن تغنيه بشعر له، كان فيه إقواء، فعرف موضع خطئه ولم يعد إليه[٤]. وطبيعي أن تكون هذه القينة قد تعلمت العربية وأحسنت لهجتها حتى استطاع النابغة أن يفطن إلى موضع خطئه. وفى أخبار عمرو بن الإطنابة الخزرجي أنه دعا بشرابه وقيانه فتغنين له بقوله:

علّلاني وعلّلاَ صاحبيا ... واسقيانى من المروق رِيا

إن فينا القِيان يعزِفْن بالد ... فٌ لفتياننا وعيشاً رخِيا[5]

ويقال إنه كان في المدينة دار للبغاء اتخذها عبد الله بن أبي وجلب إليها ستا من الإماء، وفيهن وفيه نزل قوله تعالى: (ولا تُكْرِهوا فَتَياتِكُم علَى الْبِغَاءِ)[6] وأكبر الظن أنهن كن يغنين، ويحترفن الغناء.

---

[1] طبقات ابن سعد، الجز الثاني ، القسم الأول ص ٥٠.

[2] الفن ومذاهبه في الشعر العربي، الطبعة العاشرة ص ٤٦.

[3] انظر A History of Arabian Music London Farmer (١٩٢٩) p. ١٢

[4] أغاني طبع بولاق ١٦٤/٩.

[5] أغاني (طبع دار الكتب) ١٢١/١١

[6] انظر تفسير الزمخشري (الكشاف) في صورة النور آية ٣٣

وينبغي أن نعرف أنه لم تكن هناك قواعد مرسومة للغناء في العصر الجاهلي، فهؤلاء المغنون من قيان وغير قيان لم يكونوا يتبعون نظاماً خاصا في غنائهم، بل كان كل يغنى حسب شعوره وعواطفه وما يريد من تأثير في سامعيه، إذ كان العرب لايزالون أميل إلى الفطرة في حياتهم وفنونهم.

ونحن نرى من كل ما سبق أن الغناء كان شائعاً في المدينة منذ العصر الجاهلي، وأغلب الظن أنه كانت هناك دور خاصة به، فقد كان القوم يشغفون بالغناء، وكان يوجد في حياتهم العامة كما كان يوجد في حياتهم الخاصة.

٢

في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

ظل الغناء بالمدينة في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ولم تكن تسرف فيه، إلا أنها على كل حال كانت تأخذ منه بنصيب، وهناك أحاديث كثيرة تؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يحرم الغناء، بل على العكس! كان يبيحه، فقد أثر عنه صلى الله عليه سلم أنه قال: "ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت" وقال أيضاً: "لله أشد أَذَناً (استماعاً) للرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة لقينته" وقال في معرض المدح لداود عليه السلام: "إنه كان حسن الصوت في النياحة وفى تلاوة الزبور[1]". ومما اثر عنه أيضاً أنه قال: "زينوا القرآن بأصواتكم"، إستمع إلى أبى موسى الأشعري وهو يتلو القرآن فأُعجب به، وقال: لقد "أتى مزماراً من مزامير آل داود"[2].

لم يكره النبي أن يؤدى أبو موسى الأشعري وغيره القرآن بتطريب في أصواتهم. وهو كذلك لم يكره هذا التطريب في الأذان، ولكن في صورة بسيطة بحيث لا يخرج إلى التلحين الموسيقى وما يقترن به من معازف، فإن النبي كان يكره أن يتصل القرآن بمظهر من مظاهر الوثنية، ومن هنا فصلوا بين الترنم بالشعر فسموه غناء، والترنم بالقرآن فسموه تغييراً[3].

---

[1] للغزالي ٢/٢٤٩.

[2] الغزالي ٢/٢٧٤.

[3] مقدمة ابن خلدون ص ٣٥٦.

على أنه ليس معنى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم الغناء بالشعر، فقد روى أنه سأل السيدة عائشة في زواج بعض الأنصار: "هل أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت نعم، قال فبعثتم معها من يغنى؟ قالت لا، قال أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل؟؛[4]". وروى أيضاً أنه دخل بيت الربيع بنت معوذ بن عفراء قاتل أبى جهل يوم بدر وعندها جوار يغنين فسمع إحداهن تغنى بما معناه: "وفينا نبي يعلم ما في غد"، فقال صلى الله عليه وسلم: "دعي هذا وقولي ما كنت تقولين"[5] وروى ابن عبد ربه أنه مر بجارية وهي تغنى:

هل علي ويحكم إن لهوتُ من حرجِ

فقال صلى الله عليه وسلم: لا حرج إن شاء الله[1]. وهناك حديثان يرويان عن السيدة عائشة، وهما يدلان على عدم كراهية النبي للغناء أما الحديث الأول ففيه أن أبا بكر دخل عليها في أيام منى، وعندها جاريتان تدففان، وتضربان، والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر رضى الله عنه، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال: دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد[2]. وأما الحديث الثاني فتروي فيه السيدة عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، فدخل أبو بكر، فانتهرهما وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: دعهما[3].

وهذه كلها أحاديث تؤيد أن الرسول لم يكن يحرم الغناء، أما ما روى من أنه أمر بقتل قينتين يوم فتح مكة، وهما قينتا ابن خطل، فإن ذلك يرجع إلى أنهما كانتا تغنيان بهجائه وهجاء الإسلام، وقد قَرتْ إحداهما، وقُتلت الأخرى[4]. لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلهما إذن لأنهما مغنيتان، وإنما أمر بقتلهما لأنهما كانتا تغنيان بشعر فيه هجاء له وللإسلام. ولعل مما يدل على عدم نهيه عن الغناء، وأنه لم يكن يحرمه، أننا نجد الأعشى حينما يفد عليه ليمدحه يرصده رجال قريش حتى إذا مر بهم تعرضوا له قائلين أين أردت يا أبا بصير؟ قال:

---

[4] ابن عبد ربه ٢٣١/٣.

[5] الغزالي ٢/ ٢٧٧.

[1] ابن عبد ربه ٢٣١/٣

[2] الغزالي ٢٥٤/٢.

[3] الغزالي ٢٥٥/٢.

[4] ابن هشام ٥٢/٤.

أردت صاحبكم لأسلم، فقالوا إنه ينهاك عن خلال، ويحرمها عليك، وكلها بك رافق، ولك موافق، فلما سألهم عن هذه الخلال، ما هن؟ قال أبو سفيان بن حرب، الزنا والقمار والربا والخمر[5]، ولم يذكر الغناء بين هذه الخلال، ولو كان النبي حرمه لذكره حتى يرد الأعشى، إذ كان مغنيا يغنى شعره على الصنْج ولذلك سمى صنَّاجة العرب[6].

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يحرم الغناء، ولا كان يدعو إلى نَبذه. أما ما شاع بعد ذلك من كراهية الغناء فإنما جاء متأخراً،متأثراً بآراء شخصية لبعض الصحابة والتابعين من مثل عبد الله بن عمرو ابن مسعود[7]. وهكذا أخذ الناس مع مر الزمن يختلفون في الغناء في إباحته وتحريمه ويقول ابن عبد ربه: "اختلف الناس في الغناء فأجازه عامة أهل الحجاز وكرهه عامة أهل العراق"[8]. وأخذ رأى أهل العراق يسود في العصور المتأخرة وخاصة عند المتشددين، وقد عقد الغزالي فصلا طويلاً في الإحياء دلّل فيه من وجوه كثيرة على إباحته، وأنه لا يدعو إلى تحريمه نص ولا قياس[1].

على كل حال لم يكن الغناء محرماً في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وإذا تركنا عصره إلى عصر أبى بكر وعمر وجدنا المدينة مشغولة بالحروب والفتوح، وقد تم لها الغلب على الإمبراطورية الفارسية وعلى كثير من أطراف الإمبراطورية الرومانية، ولا نكاد نسمع في عصر أبى بكر شيئاً عن الغناء والمغنين سوى ما ذكره الطبري والبلاذري من أن المهاجر لما أخضع إلى من قطع أيدي الثبجاء الحضرمية وهند بنت يامين اليهودية، ونزع أسنانهما، حتى لا تغنيا، ولم يصنع ذلك لأنهما كانتا تغنيان فقط، وإنما لأنهما كانتا تغنيان أغاني، فيها هجاء للمسلمين وذم الإسلام[2].

ومر بنا في حديثي عائشة أن أبا بكر كان ينكر الغناء عندها، ويظهر أنه كان يكرهه، وكذلك كان يكرهه عمر. وربما كان ذلك أحد الأسباب التي جعلت الغناء لا يشيع في عصرهما. روى ابن الفقيه أن عمر خرج يوماُ فإذا جوار يضربن بالدف، ويغنين، ويقلن:

---

[5] أغاني طبع دار الكتب ١٢٥/٩ وما بعدها.

[6] المصدر نفسه ٩/ ١٠٩وانظر. olson A L iterary History of the Arabs p Nich

[7] الغزالي ٢٦٣/٢ وانظر ابن عبد ربه ٢٣١/٣ حيث تجد سعد بن أبى وقاص يتغنى وهو محرم.

[8] ابن عبد ربه ٢٣٠/٣.

[1] الغزالي ٢٤٨/٢.

[2] الطبري: القسم الأول ص ٢٠١٤ والبلاذري ١٠٢.

تَغنَّين تغنين فللَّهوِ خُلِقْتُن

فجعل عمر يضرب رؤوسهن بالدرة ويقول: كذبتن، كذبتن، فأخزى الله شيطاناً رمى هذا اليكن[3]. على أن عمر ربما لم يضربهن للغناء من حيث هو، وإنما ضربهن لدعوتهن إلى اللهو وقولهن "للهو خلقتن". وقد روى أنه استمع إلى ابنه عاصم وآخر، وهما يغنيان غناء النصب، فقال: أعيدا على، فأعادا عليه، فقال لهما: أنتما كحماري العبادي قيل له:أي حماريك شر؟ قال ذا ثم ذا[4].

ومهما يكن فإن عمر كان متشدداً كسلفه، فلم يتسع الغناء في عصره ولا في عصر أبى بكر، إنما أخذ يتسع في عصر عثمان، فقد اكتظت المدينة بجماهير الأسرى التي أخذت تتعرب، كما اكتظت بالكنوز والأموال العظيمة. ولم تظهر نتائج ذلك في عصر عمر، وإنما ظهرت في عصر عثمان، إذ هدأت الفتوح، وأخذ العرب يستجمون منها، وحاولوا أن يهيئوا لأنفسهم شيئاً من الحضارة التي رأوها في البلاد الأجنبية.

تحولت معيشة العرب إذن، فقد أصبحت المعيشة الفخمة مألوفة لا في العراق وسوريا، بل أيضاً في المدينة نفسها، إذ أخذت تتحضر بألوان الحضارة التي رآها العرب في الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية، فقد جاءوا بها إليها، كما جاء بها الأسرى من فرس ومصريين وشآميين.

وقد بنى أشراف المدينة القصور على ما قدمنا، وأخذت هذه ا القصور، منذ عثمان، تكتظ بالمغنين الذين جلبهم أهل المدينة من قريش والأنصار إليها، فكل شخص كان يأتي لنفسه بمغن أو مغنية، وأحياناً يأتي بجوقة من المغنين أو المغنيات. روى صاحب الأغاني أن عبد الله بن عامر والى عثمان على البصرة اشترى إماء صنَّاجات وأتى بهن إلى المدينة فكان لهن يوم في الجمعة يلعبن فيه، وسمع الناس منهن وأخذوا عنهن[1].

---

[3] ابن الفقيه ص ٤٣.

[4] ابن عبد ربه ٣/٢٣١.

[1] أغاني٨/٣٢١.

وممن عرف بالغناء من الأجانب في عصر عثمان طُويس المغنى[٢] وهو أول من غَنَّى بالعربية في المدينة من الموالى وألقى الخُنْثَ بها[٣]. ومن مغنى هذا العصر فند، وهو مولى لسعد بن أبى وقاص[٤].

وهكذا أخذت المدينة تستعد- بفضل هؤلاء الموالى الأجانب- لأن تصبح أهم مركز للغناء في العصر الأموي. وتوقفت هذه الحركة قليلاً في عصر على ابن أبى طالب لانشغال أهل المدينة بالحروب بينه وبين معاوية ولكن لم تلبث الأمور أن هدأت، فأقبلت المدينة على الغناء، تسترد منه ما فاتها، وحاولت حينئذ أن تتفوق فيه تفوقاً واضحاً.

---

[2] ابن عبد ربه ٢٤١/٣.

[3] أغاني ٢٧/٣.

[4] ابن عبد ربه ٢٤٥/٣

(٣) المدينة أهم مراكز الغناء في العصر الأموي

من المعروف أن الحجاز عنى بالغناء في العصر الأموي عناية بالغة فقد طلبه أشرافه واهتموا به اهتماما شديدا، حتى أصبح إقليمهم أشهر الأقاليم العربية به. وفي الأغاني نصوص كثيرة تدل على أن أهل العراق لم يكونوا يعجبون بالغناء[5]، مع أن أحد وعاظهم، وهو الحسن البصري، اثر أنه قال: نعم العون الغناء على طاعة الله، يصل الرجل به رحمه، ويواسى صديقه[6]. أما الشام فإنها أيضاً لم تُعن بالغناء في أوائل هذا العصر، إذ كان معاوية لا يعجب به على ما يظهر. وقد اضطر عبد الله بن جعفر أن يقدم له مغنياً على أنه شاعر[7] وأول من اتخذ الغناء وآوى المغنين من بنى أمية يزيد بن معاوية، فقد طلبهم من المدينة، وذهب إليه سائب خاثر[1] مولى عبد الله بن جعفر.

لم تُعن الشام بالغناء في أول الأمر، واستمرت العراق لا تُعنَي به طوال هذا العصر إلا قليلا. وأما الحجاز فقد غرقت فيه إلى أذنيها، وكانت المدينة أسبق مدن الحجاز إلى العناية بالغناء، فقد رأينا أنها أخذت تعنى به منذ عصر عثمان، إذ ظهر طُويس وفند وغيرهما. أما ما يزعمه المسعودى من أن الغناء لم ينم في المدينة ومثلها مكة إلا منذ عصر يزيد بن معاوية[2] فغير صحيح، لأن النصوص التي تحت أيدينا تنكره بالنسبة للمدينة على الأقل.

ونحن لا نسمع عن مغن أجنبي في مكة في أثناء عصر الخلفاء الراشدين، ولعل في هذا ما يؤكد أن المدينة سبقت إلى العناية بالغناء، وهذا طبيعي، لأنها هي التي سبقت إلى الثراء من الفتوح، وهي أيضاً التي سبقت إلى اتخاذ الرقيق، وكانت عاصمة الإمبراطورية الإسلامية، فأسرعت إليها هذه الموجة من موجات الترف.

---

[5] انظر الأغاني ١/ ٧١ كذلك ٣٣٩/٦.

[6] ابن عبد ربه ٢٣٢/٣ ولم يعرف للعراق مغن مشهور في هذا العصر سوى حنين، انظر الأغاني ٢/٣٤١ وما بعدها.

[7] أغاني ٣٢٣/٨، ولا نعرف للشام مغنياً مشهورا قبل أبى كامل الغزيل مغنى الوليد بن يزيد ابن عبد الملك، انظر أغاني طبع دار الكتب ٩١/٧.

[1] أغاني ٨/ ٣٢٤.

[2] المسعودى ١٥٧/٥.

ومع ذلك فإن مكة لم تلبث أن عنيت بالغناء وأصبحت تنافس المدينة فيه، فظهر عندها ابن مِسجح[3] وتلاميذه. ولكن ينبغي أن نعرف أن المدينة ظلت هي المركز الأول في الحجاز للغناء والمغنين وتخريجهم. ولعل مما يدل على ذلك دلالة واضحة أن نجد خلفاء دمشق يطلبون مغنيهم غالبا من المدينة، بل إننا نجد مكة نفسها تطلب مغنيها من المدينة[4].

ومن المؤكد أن المدينة امتازت في الغناء هذا الامتياز بسبب كثرة الموالى فيها منذ عصر الخلفاء الراشدين، وساعد على ذلك أن أشرافها ونبلاءها كانوا يطلبونه، بل نرى منهم من جعل داره أشبه بفندق للمغنين، على نحو ما هو معروف عن عبد الله بن جعفر سيد بنى هاشم، فقد كان الناس يؤمون داره لسماع من بها من المغنيات والمغنين[5].

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد في المدينة إلا وكان يعجب بالغناء، حتى ليقول صاحب الأغاني إن الغناء في المدينة لا ينكره عالمهم ولا يدفعه عابدهم[6]. واستمرت المدينة مشهورة بذلك حتى العصر العباسي إذ نرى أبا يوسف يقول لبعض أهلها: "ما أعجب أمركم يا أهل المدينة في هذه الأغاني! ما منكم شريف ولا دنئ يتحاشى عنها[1]". ويروى أبو الفرج أن العقيق كان إذا سال، وأخذ المغنون يلقون فيه أغانيهم، لم تبق في المدينة مخبأة، ولا شابة، ولا شاب، ولا كهل، إلا خرج يبصره[2].

وأخذ المغنون يؤلفون طبقة مميزة في العصر، ولا نعرف أكانت لهم نقابة أولا، لكن على كل حاذ كانت لهم جماعة مميزة بسبب رقى فنهم، لا بسبب احتقار العرب لصنعتهم، فإننا نجد كثيراً من العرب يطلبون الغناء، ويرع فيه في أثناء هذا العصر مغن عربي معروف هو مالك بن أبى السمح الطائي. وحدث حسين ابن دحمان الأشقر- إن صح حديثه- قال: "كنت بالمدينة، فخلا لى الطريق وسط النهار فجعلت أتغنى:

---

[3] انظر الأغاني ٢٧٦/٣ وما بعدها.

[4] وابن سريج أهم مغنيها بعد ابن مِسجح أصله من المدينة. انظر ابن عبد ربه ٢٤٢/٣ حيث يجعله تلميذا لطُويس وانظر الأغاني ٢٤٩/١ وكذلك ٢٥١/١ حيث يجعله مولى لعبد الله بن جعفر. وكذلك كانت مكة تطلب بعض المغنيات من المدينة، انظر الأغاني ٣٢٥/٨.

[5] المسعودى ٣٨٥/٥.

[6] أغاني ٢٢٤/٨.

[1] ابن عبد ربه ٢٣٣/٣.

[2] المصدر السابق ٢٤٥/٣.

ما بالُ أهلكِ يا رباب خُزراً كأنهم غضاب[3]

قال: فإذا خَوخَةٌ قد فُتحت، وإذا وجه قد بدا، تتبعه لحية حمراء، فقال: يا فاسق أسأت التأدية، ومنعت القائلة، وأذعت الفاحشة، ثم اندفع يغنيه، فظننت أن طُويساً قد نُشر بعينه، فقلت له: أصلحك الله من أين لك هذا الغناء؟ فقال: نشأت، وأنا غلام حدث، أتبع المغنين وآخذ عنهم فقالت لي أمي: يا بنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه، فدع الغناء، واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء.. فقلت له: فأعد جعلت فداءك فقال: لا، ولا كرامة، أتريد أن تقول: أخذته عن مالك بن أنس، وإذا هو مالك بن أنس، ولم أعلم"[4].

ولعل فيما تقدم ما يدل على أن العرب كانوا يقدرون الغناء في هذا العصر، وأخذ يظهر فيه بوضوح عنصر الرجال من الموالى الأجانب، ولم يكن هذا العنصر معروفاً في العصر الجاهلي، إنما كان المعروف عنصر القيان، أما في هذا العصر فكان القيان، وكان بجانبهم الرجال من الموالى. وقد تميزوا أول الأمر بأنهم كانوا من المخنثين[5]، وهي جماعة من الرجال كانت تذهب مذهب النساء، فتلبس ملابسها، وتقلدها في عاداتها. وأول محترف للموسيقى والغناء في المدينة كان من هذه الجماعة، وهو طُويس[6].

على أن موجة الغناء لم تلبث أن اتسعت، فشملت جماعات أخرى من الموالى غير المخنثين، كما شملت جماعات من العرب أنفسهم، بحيث نرى عمر ابن عبد العزيز، وهو وال على المدينة، يصنع مجموعة من الأصوات يسجلها له صاحب الأغاني[1]. وهكذا مع مضى الزمن أصبح الغناء في المدينة عملاً شريفاً بحيث نجد كثيراً من العرب والموالى الممتازين يقبلون عليه، فكان مالك ابن أبى السمح الطائي، كما مر بنا، يحترف الغناء، وكان البردان، وهو مولًى كان يتولى السوق في المدينة ويحكم بين الناس، يحترف الغناء كذلك، وكان معدلاً مقبول الشهادة[2]. وكان دحمان صالحاً كثير الصلاة، وهو من مغنى المدينة، ويروى أنه شهد،

---

[3] خزرا: ينظرون بلحظ العير كناية عن الغضب.

[4] أغاني٤/٢٢٢.

[5] المصدر نفسه٤/٢٧٣.

[6] أغاني ٣/ ٢٧.

[1] أغاني ٩/٢٥٠.

[2] أغاني ٨/٢٧٧.

عند عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي وهو يلي القضاء، لرجل من أهل المدينة على رجل من أهل العراق بشهادة، فأجازها وعدله، فقال له العراقي: إنه دحمان! قال: أعرفه، ولو لم أعرفه لسألت عنه، قال: إنه يغنى ويعلم الجواري الغناء! قال: غفر الله لنا ولك، وأينا لا يتَغَنّى"[٣]:

وهكذا كان فقيه المدينة مالك بن أنس- إن صح الخبر السابق- يعرف الغناء، وكذلك كان قاضى المدينة ابن حنطب ووالى المدينة عمر بن عبد العزيز. ويظن الإنسان أنه لم يبق في المدينة أحد إلا وكان يتغنى، فإن لم يتغن كان يستمع إلى الغناء، ويعجب به.

اندفع الموالى وغير الموالى في المدينة من رجال ونساء يتغنون، واشتهر من الرجال كثيرون. وقد عقد لهم صاحب الأغاني فصولاً طويلة في كتابه، واهتم بتسجيل أخبار كثير منهم وأصواتهم، وعلى رأسهم طُويس وسائب خاثر والدلال ومعبد وابن عائشة ومالك ابن أبى السمح الطائي ويونس الكاتب ودحمان وعطرد، وغيرهم كثير

أما النساء فكان على رأسهن عزة الميلاء. وكان لها دار يقصدها أهل المدينة لسماع الغناء. ويلي عزةَ جميلةُ، وكان لها الدار الكبرى للغناء في المدينة. ويروى صاحب الأغاني أنها خرجت تحج، ويصف موكب حجها. ويدل وصفه دلالة واضحة على مدى ما بلغته المدينة في هذا العصر من ازدهار فن الغناء بها، فقد خرجت جميلة في مهرجان كبير يضم مجموعة من شعراء المدينة على رأسا الأحوص، كما يضم مجموعة من المغنيات، أما المغنون فكان على رأسهم هيت والدلال وطُويس وبرد الفؤاد ونَومة الضحى، وفِند، ورحمة، وهبة الله، ومعبد، ومالك، وابن عائشة، ونافع بن طُنْبورة، وبديح المليح، ونافع الخير، وأما المغنيات فكان على رأسهن الفَرِهة، وعزة الميلاء، وحبابة، وسلاّمة، وخُلَيدة، وعقَيلة، والشماسية، وفَرعة، وبلْبلة، ولذة العيش، وسعيدة، والزرقاء. وكان في ركبها لأهل المدينة من القيان زهاء خمسين قينة. ولما دنا هذا الركب من مكة استقبله مغنوها وعلى رأسهم ابن مِسجح وابن سريج والغريض وابن محرز، كما استقبله شعراؤها، وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة.

---

[3] المصدر نفسه ٦/٢١.

ويتهم أبو الفرج هذا الخبر[١]، ومع ذلك فهو يرويه عن يونس الكاتب، وهو أول من ألف في الغناء، وكان أحد شهود هذا المهرجان، فلا مفر إذن من قبوله. ولا ريب في أنه يصور مبلغ ما وصلت إليه المدينة من أهمية هذا العصر في فن الغناء، فإن أصحابه يعدون فيها بالعشرات رجالا ونساء. وكان هؤلاء المغنون والمغنيات يغنون الناس في المدينة بدون ستارة تفصل بينهم، فصاحب الأغاني يروى أن جميلة غنت أمام عبد الله بن جعفر وجماعة كانوا معه بدون ستارة إذ ظهرت أمامهم هي وجواريها[٢]، وكذلك يروى أن عزة الميلاء غنت في بيت سكينة بنت الحسين بدون ستارة[٣]. ويظهر أن الستارة كانت توضع إذا اجتمع الرجال والنساء للسماع، ففي أخبار عائشة بنت طلحة أنها أقامت حفلا دعت فيه نبيلات قريش ونبلاءها، وغنت في هذا الحفل عزة الميلاء، وكانت هناك ستارة تفصلها هي والنساء عن الرجال[٤]. وواضح أن الستارة اتخذت هنا من أجل النساء، لا من أجل عزة.

٤

الغناء يصبح فنا له مصطلحاته وتقاليده

وهذه الجماعات الكثيرة التي احترفت الغناء لم تلبث أن حولته إلى فن له مصطلحاته وتقاليده. وكان أول من حاول السير في هذه الطريق طُويس شيخ المغنين في المدينة، فقد قال صاحب الأغاني: إنه أولي من غنى الغناء المتقن، وقال أيضاً: إنه أول من صنع الهزج والرمل في الإسلام[5]. ولا ريب في أن هذا الغناء المتقن الجديد كان يخالف الغناء العربي القديم، الذي كان يعتمد في أغلب الأمر على عروض الشعر وذوق المغنى، وقلما ذهب فيه المغنون إلى التلحين والتوقيع توقيعاً يقوم على مصطلحات خاصة. ويقول ابن الكلبي إن غناء العرب قديما كان على ثلاثة أوجه: النصب والسناد والهزج، فأما النصب فهو أغاني الركبان والقينات، وأما السناد فهو أنغام ثقيلة، وأما الهزج فهو غناء خفيف[6].

---

[1] أغاني ٢٠٨/٨.

[2] أغاني ١٧٩/٨

[3] أغاني طبع بولاق١٣٢/١٥ومابعدها

[4] المصدر نفسه ٥٧/١٠.

[5] أغاني ٤/ ٢١٩.

[6] المسعودى ٩٣/٨.

وواضح في كلام ابن الكلبي أنه يريد بالسناد والهزج الغناء الإسلامي الحديث، أو كما يسميه صاحب الأغاني الغناء المتقن، فالسناد هو الغناء الثقيل، والهزج ضرب من الغناء الخفيف. ورأينا أبا الفرج ينسب الهزج إلى طُويس، وقد نسب الغناء الثقيل إلى سائب خاثر، فقال إنه أول من غنى بالعربية الغناء الثقيل[1]، وروى بجانب ذلك أن عزة الميلاء أول من غَنَّت من النساء الغناء الموقع[2]، وهو يقصد هذا الغناء الجديد الذي يسميه تارة المتقن وتارة الموقع.

وأخذ هذا الغناء الموقع ينوع إلى ستة ضروب تجدها منتشرة في أخبار مغنى المدينة لهذا العصر، وهي: ثقيل أول، وثقيل ثان، وخفيف الثقيل، ورمل، وخفيف الرمل، وهزج. وهي ضروب ترجع إلى نوع النقرات، فقد تكون ثقيلة، والثقيلة على ألوان، وقد تكون خفيفة، والخفيفة على ألوان أيضاُ. وقد ميزوا بجانب ذلك مجرى الصوت بحسب الأصابع، فقالوا ثقيل أول بالوسطى، وخفيف ثقيل بالسبابة، وخفيف رملِ بالبِنْصر، أو يقولون رمل بالسبابة في مجرى البِنْصر ونحو ذلك مما نقرؤه في الأغاني منسوبا إلى مغنى العصر[3].

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن هذه المصطلحات التي تمت لفن الغناء وأصبح بها فناً قائماً له رسومه إنما تكونت تحت أيدي الموالى، فهل معنى ذلك أن الغناء العربي تحول هذا التحول تحت تأثير نظريات جديدة أتته من الخارج؟ هناك نصوص كثيرة في الأغاني تثبت صلة واضحة بين هذا الغناء العربي وبين الغناء الأجنبي، فأبو الفرج يذكر- كما مر بنا- أنه كان هناك إماء صنّاجات أحضرهن عبد الله بن عامر والى البصرة في عصر عثمان، وكان لهن يوم في الأسبوع يغنين فيه الناس[4]، وربما تأثر بهن طُويس، وربما تأثر بمغنين من الفرس لم يذكرهم أبو الفرج. على أنه ذكر مغنياً فارسياً، يسمى نشيطاً، اشتراه عبد الله[5] بن جعفر، وكان يغنى في المدينة الغناء الفارسي، ويقول إن سائب خاثر أخذ عنه غناءه الفارسي،

---

[1] أغاني ٣٢٢/٨.

[2] أغاني ١٣/١٦.

[3] في مسالك الأبصار نص طريف نزلت فيه ألقاب الأنغام والأصوات التي في كتاب الأغاني على ألقاب المحدثين في عصر صاحب الكتاب وأنغامهم من أصبهان وزنكلا وراهوي وحسيني. انظر المسالك، نسخة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية، الجزء الأول من المجلد السادس الورقة ٢.

[4] أغاني ٣٢١/٨.

[5] المصدر نفسه والصفحة وانظر المصدر نفسه ٣٨/١.

كما أخذ هو عن سائب خاثر الغناء العربي[6]. وفى ترجمة عزة يقول أبو الفرج إن نشيطاً وسائب خاثر قدما المدينة، فغنيا أغاني بالفارسية، وأخذت عزة عنهما أنغاماً، وألفت عليها ألحانا[7].

واحتذى مغنو مكة حذْو مغنى المدينة في التأثر بالغناء الفارسي، فأبو الفرج يروي أن ابن مِسجح أقدم المغنين هناك استمع إلى الفرس يغنون، وهم يبنون المسجد الحرام في خلافة ابن الزبير، فنقل غناءهم من الفارسية إلى العربية[8]. ويقول إن عود ابن سريج كان على صنعة عيدان الفرس، وإنه أول من ضرب بالعود الفارسي في مكة على الغناء العربي[١]. ويروى أبو الفرج أيضاً أن ابن محرز شخصن إلى فارس، فتعلم ألحان الفرس، وكذلك شخص إلى الشام فتعلم ألحان الروم، وألف بين ذلك، ونقله إلى الغناء العربي[٢].

وإذن فهناك صلة مؤكدة بين الغناء العربي الذي شاع في المدينة بل في الحجاز كله، وبين الغناء الأجنبي الفارسي والرومي. على أنه ينبغي ألا نبالغ في هذه الصلة فنزعم أن العرب نقلوا نظريتهم الغنائية في هذا العصر من لدن الأجانب. حقاً هم تأثروا بهم ولكنهم لم يذوبوا في غناء غيرهم، ولعل من طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أن المغنين مع أنهم كانوا من الأجانب لم يولدوا في بلادهم، وإنما ولدوا في بلاد العرب، أو على الأقل نشأوا فيها، ما عدا مغنياً واحداً هو نشيط الفارسي.

وأيضاً فإن هؤلاء المغنين الأجانب، الذين تتردد أسماؤهم في الأغاني والذين تمت تحت أيديهم وألسنتهم نظرية الغناء العربية الجديدة، كانوا يبدءون دائماً بالغناء العربي، ثم يتعلمون الغناء الأجنبي بعد ذلك كما تعلم ابن محرز في بلاد الفرس والشام. ومصطلحات الغناء نفسها في هذا العصر التي تتردد في كتاب الأغاني كلها من الألفاظ العربية. وإن في هذا كله ما يشير إلى أن التأثير الأجنبي لم يكن واسعاً. وأيضاً فإن الآلات الموسيقية التي تتردد مع

---

[6] أغاني ٣٢١/٨.

[7] أغاني ١٣/١٦.

[8] أغاني ٢٧٧/٣.

[1] أغاني٢٥٠/١.

[2] المصدر نفسه ٣٧٨/١.

المغنين الأمويين أكثرها قديم من مثل الصنْج والمِزهر والقضيب والدفّ والطبل والمزمار وحتى العود والطُّنْبور يظن أنهما عرفا في العصر الجاهلي.

والحق أنه ينبغي ألا نبالغ في التأثير الأجنبي، وما أثّر به الغناء الرومي والفارسي في الغناء العربي في أثناء العصر الأموي، فإن ذلك لم يتجاوز، في الأعم الأغلب، بعض ألحان رومية وفارسية انتقلت إلى الغناء العربي. ونحن لا نجد للروم مغنياً في الحجاز في أثناء هذا العصر! وربما كان التأثير الفارسي أهم، وقد نقل العرب بعض ألحان من غناء عمالهم الذين استخدموا في بناء الكعبة وبناء بعض القصور[٣]، وكان منهم نشيط الفارسي المغنى المشهور. ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نقول إن العرب استعاروا نظريتهم في الغناء من الفرس. أما ما يزعمه ابن خُرداذبه من أن العرب نقلوا الإيقاع منهم[4]، فليس عليه دليل، خاصة إذا عرفنا أن الفرس لم يكونوا يعرفون نظرية الوزن في الشعر، فإن هذه النظرية إنما انتقلت إليهم من العرب على نحو ما هو معروف في تاريخ اللغة الفارسية الحديثة. وربما كان من أوضح الأدلة على ما نزعمه أن الحيرة، وهي أقرب إلى بلاد الفرس من المدينة ومكة، لا نجدها تأخذ شيئاً واضحة من الغناء الفارسي! وكان المعقول أن تكون أسرع إلى التأثر بالغناء الفارسي، ومع ذلك فإننا لا نجد فيها هذا العصر سوى النصب الذي عرف عن العرب منذ العصر الجاهلي، ولذلك لم يدون شيء من غناء أهلها لسقوطه، وأنه ليس من أغاني الفحول[1].

ولعل في هذا كله ما يدل على أن العرب لم ينقلوا من الفرس ولا من الروم نظريتهم الغنائية، إنما نقلوا بعض الألحان وبعض الأنغام وبعض الأدوات الموسيقية وخاصة في العصر العباسي، وقد عرض المسعودى لهذه الآلات في كتابه مروج الذهب بالتفصيل[2].

ومن يقرأ أخبار جميلة في الأغاني يلاحظ أن الغناء تم له في بيتها كل ما يتصوره الإنسان من رقي، إذ كانت تغنّى بمصاحبة جوقة كبيرة تضرب على العيدان والأوتار، حتى لتبلغ الجوقة أحياناً خمسين شخصا، وكانت تضرب في أثناء غنائها، وتضرب الجوقة على

---

[3] أغاني ٣/ ٢٨١.

[4] المسعودى ٨/٩٠.

[1] أغاني ٢/٣٥٢.

[2] المسعودى ٨/ ٩٠ وما بعدها

ضربها[3]. وكما عرف بيت جميلة الغناء المصحوب بجوقة كبيرة، عرف كذلك الغناء المصحوب بالرقص. روى أبو الفرج أنها جلست يوماً ولبست برنساً طويلاً، وألبست من كان عندها برانس دون ذلك... ثم قامت، ورقصت وضربت بالعود، وعلى رأسها البرنس الطويل، وعلى عاتقها بردة يمانية، وعلى القوم أمثالها، وقام ابن سريج يرقص ومعبد والغَريض وابن عائشة ومالك، وفى يد كل منهم عود، يضرب به على ضرب جميلة ورقصها، فغنت وغنى القوم على غنائها، ثم دعت بثياب مصبغة، ودعت للقوم.بمثل ذلك فلبسوا ثم ضربت بالعود وتمشت، وتمشى القوم خلفها، وغنَّت وغنوا بغنائها بصوت واحد[4].

والحق أن المدينة لم تكد تبقى للعصور التالية شيئاً جديداً تضيفه إلى نظريتها الغنائية، فإن الغناء بلغ فيها في أثناء هذا العصر الأموي كل ما كان يحلم به العربي. ولعلنا بعد ذلك لا نعجب حين نسمع عن تأثر الناس بغناء مغنيها تأثرا يفوق الوصف، إذ كان بعضهم يخر مغشيا عليه[5]، وكان بعضهم يصفق ويرقص[6]. وقد سمع ابن أبى ربيعة صوتاً من جميلة فبلغ به سحر الصوت أن شق جيب قميصه إلى أسفله فصار قباء، وهو لا يدرى[7]، وغير ابن أبى ربيعة كان إذا سمع جميلة يجد شيئاً يضغط قلبه ويحرقه فلا يملك عينه[8]. ويروى أن مولى حبابة إحدى تلميذات جميلة بعد أن باعها إلى يزيد بن عبد الملك سمعها عنده وكان بجواره شمعة فعرض لحيته لها، فاحترقت من شدة الطرب، وهو لا يدرى[1] ومن غريب ما يروى أن قاضى المدينة محمد بن عمران التيمي استمع يوما إلى جارية عنده، تغنى، فوثب إلى نَعله، فعلقها في أذنه من شدة الطرب، وحبا على ركبتيه، وأخذ بطرف أذنه والنعل فيها، وجعل يقول: اهدونى أنا بدنة، اهدونى أنا بدنة[2].

---

[3] أغاني ٢١٨/٨.

[4] أغاني ٢٢٧/٨.

[5] ابن عبد ربه ٢٥٧/٣.

[6] أغاني ٢٧٧/٤.

[7] المصدر نفسه ٢٠٦/٨.

[8] المصدر نفسه ٨/ ٢٠٩ وكذلك ٨/ ٢٣٥.

[1] أغاني ٣١٦/١.

[2] المصدر نفسه ٣٣٨/٦.

وفى هذا ما يفسر تولُّه بعض العباد والنساك بهؤلاء المغنين والمغنيات، فقد حذقوا فنهم حذقاً شديداً، وقصة عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمي الذي كان يلقب بالقَس لعبادته وفتنته بسلامة حتى سميت سلاَّمة القَس، شائعة معروفة[3]. ويروى صاحب الأغاني أنه كان بالمدينة ناسك من أهل العلم والفقه، وكان يغشى مجلس عبد الله بن جعفر، فسمع جارية مغنية لبعض النخاسين تغنى (بانت سعاد وأمسى حبلُها انقطعا) فاستهتر بها، وهام، وترك ما كان عليه.. وبلغ عبد الله بن جعفر خبره، فبعث إلى النخاس، فاعترض الجارية،و سمع غناءها بهذا الصوت، وقال ممن أخذته؟ قالت: من عزة الميلاء، فابتاعها بأربعين ألف درهم، ثم بعث إلى الرجل، فسأله عن خبره فأعلمه إياه وصدقه عنه، فقال له: أتحب أن تسمع هذا الصوت ممن أخذته عنه تلك الجارية، قال نعم، فدعا بِعزة، وقال لها: "غَنِّيه إياه، فغنته، فصعق الرجل وخر مغشيا عليه..." وأهدى عبد الله بن جعفر الجارية إليه[4].

وهذا السحر إنما بلغته مغنيات المدينة بفضل إحسانهن للغناء حتى ليقال إن دحمان اشترى جارية بمائتي دينار وعلمها الغناء فباعها بعشرة آلاف دينار[5]. واشترى يزيد بن عبد الملك سلامة بعشرين ألف دينار[6]، واشترى حبابة بأربعة آلات دينار[7]. ومن يرجع إلى أخبار المغنين في كتاب الأغاني يجد خلفاء الأمويين منذ الوليد بن عبد الملك يستقبلونهم استقبالاً لعله يتفوق على استقبالهم للشعراء، إذ كانوا يجيزونهم جوائز جزيلة. ومما يروى في هذا الجانب أن يزيد عبد الملك وفد عليه معبد ومالك بن أبى السمح وابن عائشة، فأمر لكل منهم بألف دينار[8] وقد توسع الوليد بن يزيد في جوائز المغنين، فيقال إنه أعطى معبداً اثنى عشر ألف دينار[9]، واستقدم جميع مغنى الحجاز، وأجازهم جوائز كثيرة[10]. وهكذا كانت الدولة تعترف بالغناء وأصحابه.

---

[3] المصدر نفسه ٣٣٤/٨ وما بعدها.

[4] أغاني ١٩/١٦.

[5] أغاني ٢٥/٦.

[6] المصدر نفسه ٣٤٣/٨.

[7] أغاني ١٥٦/١٣.

[8] أغاني ١٠٩/٥.

[9] المصدر نفسه ٥٥/١.

[10] أغاني ١١١/٥.

ولا ريب في أن هذا التقدير كله إنما يرجع إلى ما أحرزه المغنون والمغنيات في هذا العصر من مهارة وتفوق في فن الغناء. وتوج هذه النهضة يونس الكاتب تلميذ معبد بكتاب في الأغاني التي كانت متداولة في عصره، وهو أول من دون الغناء، ويقول أبو الفرج: كتابه في الأغاني ونَسبها إلى من غَنَّى فيها هو الأصل الذي يعملُ عليه ويرجع إليه[1]. وهكذا أتيح لهذه الحركة أن يسجلها أحد أصحابها في عصرها. ومن هنا كانت أخبار المغنين في هذا ا لعصر الأموي وما غنوا فيه، كل ذلك لا سبيل إلى تهمته، إلا إذا قامت قرائن واضحة، وسنعرض في إيجاز لأشهر مغنى العصر في المدينة ومغنياته.

٥

أشهر المغنين

كان المغنون في هذا العصر بالمدينة كثيرين كثرة مفرطة، وقد ترجم صاحب الأغانى لكثيرين منهم، ولكنا سنكتفي بالحديث عن مشهوريهم، لأننا نعتقد أنهم أثروا في الشعر العربي آثاراً كباراً. ولعل أشهر المغنين حينئذ طُويس وسائب خاثر ومعبد وابن عائشة ويونس الكاتب ومالك بن أبى السمح الطائي.

طُويس

من موالى بنى مخزوم، وطُويس لقبه، واسمه عيسى بن عبد الله، كنيته أبو عبد المنعم. وكان طويلاً أحول ويقول ابن بدرون: إنه اشتهر في عصر عثمان[2]، وكان لا يضرب بالعود، وإنما ينقر بالدفّ[3]، وكان يضحك كل ثكلى حرى. ويقول أبو الفرج إن أول غناء غناه، وهزج به:

قد براني الحب حتى كدتُ من وجدي أذوب[4]

---

[1] أغاني ٣٩٨/٤.

[2] انظر شرح ابن بدرون لقصيدة ابن عبدون (طبع ليدن) ص ٦٤.

[3] أغاني ٢٧/٣

[4] المصدر نفسه ٢٨/٣.

وهو أول من تغنى في المدينة غناء يدخل في الإيقاع[5]، وهو ما يسميه أبو الفرج الغناء المتقن، وهو أيضاً أول من صنع الهزج والرمل في الإسلام[6]. ولما طلب مروان بن عبد الملك المخنثين وقال: من جاءني بمخنث فله عشرة دنانير فر إلى السويداء، وهي على ليلتين من المدينة في طريق الشام، فلم يزل بها عمره حتى مات في ولاية الوليد بن عبد الملك[1]. ويذكر ابن عبد ر به من تلاميذه في المدينة الدلال ونومة الضحى، وفى مكة ابن سريج[2].

سائب خاثر

هو أبو جعفر سائب بن يسار، وهو مولى فارسي أصله من فَيء كسرى، واشترى عبد الله بن جعفر ولاءه من مواليه، وأعتقه، وكان يلزمه بعد عتقه لا يفارقه[3]. ويقال إنه آلى ألا يغنى أحداً سوى ابن جعفر مولاه إلا أن يكون خليفة أو ولى عهد، أو ابن خليفة[4].

ولما جاء نشيط المغنى الفارسي المدينة، وأُعجب به عبد الله بن جعفر، جاراه، ونقل ألحانه إلى الغناء العربي، ليرضى مولاه. ثم اشترى عبد الله بن جعفر نشيطة بعد ذلك، فأخذ عن سائب خاثر الغناء العربي، وأخذ عنه سائب الغناء الفارسي[5].

وإذا كان طُويس اشتهر بالألحان الخفيفة من الهزج والرمل، فإن سائب خاثر اشهر بالغناء الثقيل، فكان أول من غَنَّى به في العربية. وهكذا وضع هذان المغنيان طُويس وسائب خاثر أسس! فن الغناء في عصرهما بنوعيه من النقرات الخفيفة والثقيلة. وقد قتل سائب في موقعة الحرة. ونجد بين تلاميذه معبدا[6] وجميلة[7]، وعزة[8] الميلاء.

---

[5] المصدر نفسه ٢٩/٣.

[6] المصدر نفسه ٢١٩/٤.

[1] المصدر نفسه ٢١٩/٤.

[2] ابن عبد ربه ٢٤٢/٣.

[3] أغاني ٣٢١/٨.

[4] المصدر نفسه ٣٢٢/٨.

[5] أغاني٣٢١/٨ وانظر طبعة بولاق ١٣/١٦

[6] المصدر نفسه ٣٢٢/٨

[7] أغاني ١٧٧/٨.

[8] أغاني ١٣/١٦.

معبد

هو معبد بن وهب مولى ابن قَطَن، أعتقه، وكان أبوه عبداً حبشياً[9]، وكان يشتغل في أول حياته بالتجارة، وربما رعى الغنم لمواليه، ومع ذلك كان يختلف إلى نشيط الفارسي وسائب خاثر حتى اشتهر بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت[10]. ويقال إنه قدم مكة في شبابه فوجد أحد نبلائها، ويسمى ابن صفوان، قد سبق بين المغنين جائزة، فغناه صوتاً فأعطاه الجائزة[11].

ويظهر أن صنعة الغناء في المدينة انتهت عند معبد إلى كل ما كان ينتظر لها من حسن وإبداع حتى ليقول إسحق الموصلي: "هو فحل المغنين وإمام أهل المدينة في الغناء[١]". ويقولون إنه لم يكن، فيمن غنى، أحد أعلم بالغناء منه، وفيه يقول الشاعر:

أجاد طُويس والسريجي بعده وما قصباتُ السبق إلا لمعبدِ

وأُثر عنه أنه قال: " والله لقد صنعت ألحاناً لايقدر شبعان ممتلئ ولا سقَّاء يحمل قربته على الترنم بها، ولقد صنعت ألحاناً لا يقدر المتكئ أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزاً، ولا القاعد حتى يقوم[٢]". وسمع به يزيد بن عبد الملك فاستقدمه، كما استقدم ابن سريج مغنى مكة، وروى أنه قال لمعبد: " إن الذي أجده في غنائك لا أجده في غناء ابن سريج، أجد في غنائك متانة، وفى غنائه انحناثاً ولينا[٣]". وهذا صحيح، لأن ابن سريج تلميذ طُويس، وهو كان يغنى الغناء الخفيف: الهزج والرمل. أما معبد فتلميذ سائب خاثر، وهو كان يغنى الغناء الثقيل. ولما تولى الوليد بن يزيد بعث في طلبه واستقبله استقبالاً حافلاً حين وفد عليه[٤].

وترك معبد مجموعة كبيرة من الأصوات الملحنة رواها أبو الفرج، ومن أهمها وأجملها خمسة تعرف بألقابها، وهي الدوامة، سماه بذلك معبد لكثرة ما فيه من الترجيع، ثم المنَمنَم، ثم

---

[9] أغاني ٣٦/١.

[10] أغاني ٣٩/١.

[11] المصدر نفسه ٤٠/١.

[1] أغاني ٣٨/١.

[2] المصدر نفسه ٣٩/١. والمستوفز: المتحفز للقيام.

[3] المصدر نفسه ٦٨/١.

[4] أغاني ٥٢/١ وما بعدها.

معقّصات القرون، سماه بذلك لأنه يحرك خصل الشعر، ثم المتَبختر، ثم مقطّع الأثفار[٥]. وبجانب هذه الأصوات الخمسة نجد له سبعة أصوات أخرى مشهورة وكانت تسمى مدن معبد أو حصون معبد، وذلك أنه سمع رجلا يقول: إن قتيبة بن مسلم فتح سبعة حصون أو سبع مدن بخراسان فيها سبعة حصون صعبة المرتقى والمسالك لم يوصل إليها قط، فقال: والله لقد صنعت سبعة ألحان كل لحن منها أشد من فتح تلك الحصون، فسئل عنها فذكرها، ورواها أبو الفرج كلها[٦].

وكان معبد في عصره إمام المغنين في المدينة غير منازعٍ، واختلف إليه كثير ون يتلقون عنه صنعته مثل حكَم الوادي[١] وابن عائشة[٢]، ومالك[٣] بن أبى السمح الطائي، ويونس[٤] الكاتب ودحمان[٥] وحبابة[٦] وسلاّمة[٧] القس. وقد توفى في أيام الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده[٨]، وندبته تلميذته سلامة[٩].

ابن عائشة

هو محمد بن عائشة ويكنى أبا جعفر ولم يكن يعرفُ له أب فكان ينسب إلى أمه، وكانت أمه مولاة لكثير بن الصلْت الكندي، وقيل إنها مولاة لآل المطلب ابن أبى وداعة السهمي، وروِي عنه أنه قال إن أمه كانت ماشطة[١٠].

وكان ابن عائشة من أحسن الناس حلوقاً، ضربه يوماً رجل فذهب إليه ابن أبى عتيق فضربه، ثم خَلاّه، وأقبل على من حضر، وقال: هذا أراد أن يكسر مزامير داود[١١]. وقال

---

(5) أغاني طبع دار الكتب ١٠٥/٩.

(6) المصدر نفسه ١٣٧/٩.

(1) أغاني ٤٥/١.

(2) المصدر نفسه ٢٠٣/٢.

(3) المصدر نفسه ١٠١/٥ ومما بعدها

(4) المصدر نفسه ٣٩٨/٤

(5) أغاني ٢٢/٦

(6) أغاني ١٥٤/١٣

(7) أغاني ٣٣٤/٨

(8) المصدر نفسه ٣٦/١.

(9) أغاني ٣٧/١.

(10) المصدر نفسه ٢٠٣/٢.

إسحاق الموصلي عنه: "ابن عائشة أحسن الناس ابتداء وتوسطاً وقطعاً بعد معبد[١٢]". وقال يونس الكاتب: "كان ابن عائشة يضرب بالعود، ولم يكن مجيداً في الضرب، وكان غناؤه أحسن من ضربه، فكان لا يكاد يمس العود إلا أن تجتمع جماعة من الضراب، فيضربون عليه، ويضرب هو ويغنى، فناهيك به حسناً[١٣]". وقد طلبه يزيد بن عبد الملك فغناه صوتاً فطرب حتى ألحد في طربه، وقال فيما قاله لساقيه: اسقنا بالسماء الرابعة[١٤]، وطلبه ابنه الوليد فغناه الصوت نفسه، فقال له: أحسنت والله يا أميري... ثم نزع ثيابه فألقاها عليه، وبقى مجرداً إلى أن أتوه بمثلها، ووهب له ألف دينار، وحمله على بغلة وقال: اركبها بأبي أنت وانصرف، فقد تركتنى على مثل المِقْلي من حرارة غنائك[15]. ويروى أنه غنى أهل المدينة يوماً في العقيق فارتفعت أصواتهم: أحسنت أحسنت! وانصرفوا حوله يزفّونه إلى المدينة[1]. ويقال إنه غنى بموسم الحج فحبس الناس عن المسير، واضطر بت المحامل، ومدت الإبل أعناقها، وكان أمير الموسم هشام بن عبد الملك فأتوه به، فكلمه، فوجده تياهاً، فقال: ارفق بتيهك، فقال: حق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تياهاً، فضحك منه وخلى سبيله[2]. وقد توفى ابن عائشة في خلافة الوليد بن يزيد، ويقال إنه توفى مقتولاً[3].

يونس الكاتب

هو يونس بن سليمان بن كُرد بن شِهريار من ولد هرمز، وهو من موالى عمرو ابن الزبير، وكان أبوه فقيهاً فأسلمه في ديوان المدينة فكان من كتابه[4]، ومن أجل ذلك سمى يونس الكاتب "ولم يكن في أصحاب معبد أحذق ولا أقوم بما أخذ عنه منه[5]". وإذا كان معبد قد اشتهر بحصونه أو مدنه السبع فإن يونس اشتهر أيضاً بزينبياته السبع وهي كلها من شعر ابن

---

[11] أغاني ٢/٢٠٤.

[12] المصدر والصفحة نفسهما.

[13] المصدر نفسه ٢/ ٢٠٥.

[14] المسعودى ٦/٩.

[15] أغاني ٢/٢٢٦ وانظر المسعودى ٦/٨.

[1] أغاني ٢/٢٠٦ وانظر ابن عبد ر به ٣/٢٤٥

[2] أغاني ٢/٢٠٨

[3] انظر وفاته في الأغاني ٢/٢٣٥ وما بعدها

[4] أغاني طبع دار الكتب ٤/٣٩٨.

[5] المصدر نفسه ٤/٣٩٨.

رهيمة في زينب بنت عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وقد رواها أبو الفرج كلها في أغانيه[6]. وطلبه الوليد بن يزيد فذهب إليه، وغناه، واعجب بغنائه وأجازه بثلاثة آلاف دينار[7].

وأهمية يونس لا تأتى من أنه كان مغنية فحسب، بل تأتى من أنه سجل لأول مرة الأغاني ونسبها إلى أصحابها، فكان كتابه فيها الأصل الذي يعول عليه فيما بعد[8]، واعتمد عليه إسحق الموصلي وابن المهدى في كتابيهما عن المغنين والغناء، وكذلك اعتمد عليه أبو الفرج نفسه فهو كثير الرواية في أغانيه عنه. ويظهر أنه لم يؤلف فيٍ الأغاني والمغنين كتاباً واحداً فحسب، فصاحب الفهرست يذكر له ثلاثة كتب؟ كتاب مجرد يونس، وكتاب القيان، وكتاب النغم[9]. وقد أخذ الغناء عن يونس سياط، وهو أستاذ ابن جامع وإبراهيم الموصلي[10]. وفي الفهرست أن إبراهيم تتلمذ ليونس مباشرة[11]، وفى ذلك ما يدل على أنه عاش إلى أوائل العصر العباسي.

مالك الطائي

هو مالك بن أبى السمح الطائي، فهو مغن عربي أصيل، كان أبوه من طيء، وكانت أمه، ويقال أم أبيه، من بنى مخزوم، فهو طائي الأب قرشي الأم أو الجدة[1]. وكان أبوه منقطعا إلى عبد الله بن جعفر، فلما حضرته الوفاة أوصى به إليه فنشأ في داره بين المغنين والمغنيات، الذين كان يرعاهم ابن جعفر، ويظهر أنه لم يكن يكتفي بمن يسمع من المغنين في دار ابن جعفر، فقد لزم بيت جميلة[2] يستمع إلى من عندها من المغنيات والمغنين، وكذلك لزم باب حمزة بن الزبير، وكان معبد منقطعاً إلى حمزة يغنيه في كل يوم، فحمل عنه أصواته

---

(6) أغاني ٤٠٢/٤ وما بعدها

(7) أغاني ٤٠٠/٤.

(8) المصدر نفسه ٣٩٨/٤.

(9) الفهرست لابن النديم طبعة القاهرة ص ٢٠٧.

(10) أغاني ١٥٢/٦

(11) الفهرست ص ٢٠٧.

(1) أغاني طبع دار الكتب ١٠١/٥.

(2) المصدر والصفحة نفسهما.

وغناءه[3]. ولم يلبث أن أخذ ينفرد بطريقة خاصة به، وعرف ذلك حمزة، فقربه منه وأمر معبداً أن يطارحه[4] و بذلك ذاع صيته في المدينة وخارج المدينة.

وكان مالك يحور في ألحان معبد، يزيد فيها وينقص، فيظهر من الإتقان والجودة ما يروع به سامعيه، قال إسحق الموصلي: "كان مالك إذا غنى ألحان معبد الطوال خَفَّفَها وحذف بعض نغمها وقال: أطاله معبد ومطَّطه، وحذفته أنا وحسنته"[5]، وقال أبو الفرج إنه غَنَّى حمزة يوماً صوته لمعبد بعد أن زاد فيه ونقص منه، فألقى عليه حلة كانت عليه قيمتها مائتا دينار[6].

ولما طارت شهرة مالك استقدمه إليه يزيد بن عبد الملك[7]. وكذاك الوليد ابنه، وكان يعجب به، وقد استمر عنده حتى قُتل[8]، وعمر مالك حتى أدرك دولة بني العباسي وقدم على سليمان بن على بالبصرة فمت إليه بخؤولته في قريش وانقطاعه إلى ابن جعفر، فوصله وأجزل جائزته[9]. وعاد من فوره إلى المدينة، ولا نسمع شيئاً عنه بعد هذه الحادثة، ويظهر أنه لم يعمر طويلاً بعدها.

عطرد

مولى الأنصار "وكان جميل الوجه حسن الغناء طيب الصوت جيد الصنعة حسن الرأى والمروءة فقيهاً قارئاً للقرآن، وكان يغنى مرتجلا"[٣] وقد أدرك الدولة العباسية وانقطع إلى سليمان بن على، وعاش إلى عصر المهدى، وربما لحق عصر هرون الرشيد[٤]. وقد استقدمه الوليد بن يزيد من المدينة، ويروى أنه لما سمع منه أحد أصواته شَقَّ حلَّة وشْيٍ كانت عليه ورمى بنفسه في بركة خمر، فما زال بها حتى أخرج كالميت سكرا، فلما أفاق قال له: كأني بك الآن قد أتيت المدينة فقمت بي في مجلسها ومحفلها وقعدت وقلت: دعاني أمير المؤمنين،

---

[3] أغاني ١٠٢/٥ وما بعدها

[4] أغاني ٥/ ١٠٤.

[5] أغاني ١١٢/٥

[6] أغاني ١٠٥/٥

[7] أغاني ١٠٩/٥

[8] أغاني ١١١/٥ وما بعدها وكذلك ٧٩/١٦.

[9] أغاني ١٠٢/٥.

[3] أغاني ٣٠٣/٣.

[4] أغاني ٣٠٣/٦ وراجع ٣٠٣/٣.

فدخلت إليه، فاقترح علي فغنيته وأطربته، فشق ثيابه وفعل، والله لئن تحركت شفتاك بشيء مما جرى فبلغني لأضربن عنقك " ثم أعطاه ألف دينار، فأخذها وانصرف إلى المدينة [٥].

وكانت في عطرد دعابة فإن والياً لبنى العباس شدد في المغنين وأصحاب الملاهي، وحبسهم، وحبس عطرد معهم، فشفع له بعض أهل المدينة، وقالوا: إنه من أهل المروءة والنعمة والدين، فأطلقه الوالي، وخرج، وسرعان ما عاد إليه، حين رأى المغنين يعرضون عليه، وسأله، أعلى الغناء حبست هؤلاء؟ قال نعم، قال فلا تظلمهم فو الله ما أحسنوا منه شيئاً قط، فضحك وخلى سبيلهم[٦] فانصرفوا يضحكون من عطرد وفكاهته

ويبدو من روايات الأغاني لأصواته أنه كان يعنَي دائماً بالغناء الثقيل فهو من هذه الناحية تلميذ مخلص لفن أستاذه معبد الذي كان يعنَي بالأنغام الثقيلة[١].

وهؤلاء هم أشهر المغنين في المدينة في أثناء العصر الأموي، ووراءهم كثيرون جدا كانوا متفوقين في غنائهم تفوقاً واسعاً. وقد عقد صاحب الأغاني لبعضهم تراجم ألم فيها بأخبارهم، وترددت أسماء كثير منهم في أثناء حديثنا عن الغناء. وممن نذكره سعد بن هارون[٢]، ومنهم يزيد حوراء وقد لحق عصر المهدي[٣]، ومنهم البيذق الأنصاري وقد طرب يزيد بغنائه وأجزل له العطاء[٤]، ومنهم أبو سعيد مولى فائد وكان فاضلا مقبول الشهادة معدلاً وعمر إلى خلافة الرشيد ولقيه إبراهيم الموصلي وابنه إسحق وذووهما[٥]، وغير أولئك كثير.

وينبغي أن نعرف أن هذه الطبقة الأخيرة من مغنى المدينة هي التي نقلت الغناء إلى العراق، أو قل هي التي نقل عنها الغناء إلى العراق أوائل العصر العباسي، فإن كثيراً من أهل المدينة لم يذهب إلى العراق وكان يذهب إليهم المغنون للأخذ عنهم. وأول من اهتم بالغناء من الخلفاء العباسين المهدى على ما هو معروف[٦]. ونحن لا نصل إليه حتى نجده يستقدم

---

(5) أغاني ٣/٣٠٧ وما بعدها.

(6) أغاني ٣/ ٣٠٧.

(1) أغاني ٣/ ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٩ وكذلك أغاني ٨/١٨٥، ٢٠١.

(2) أغاني ١/٥٦.

(3) أغاني ٣/٢٥١.

(4) أغاني (طبع بولاق) ١٣/١٦٣.

(5) أغاني (طبع دار الكتب) ٤/٣٣٠.

(6) البيان والتبين ٣/٣٧٠.

المغنين من الحجاز[٧]. ومن يقرأ في كتاب الأغاني يجد أكثر أسانيده تنتهي إلى مغنى الحجاز ومغنى المدينة بنوع خاص، مما يدل على أن المدينة أثر مغنوها وغناؤهم في العصر العباسي تأثيراً واسعاً جدا.

---

[7] أغاني ١٧٤/٦.

(٦) أشهر المغنيات

رأينا المدينة مكتظة بالمغنين، وليس معنى ذاك أن المغنيات كن قليلات، فقد كن كثيرات أيضاً، ولعل أشهرهن حينئذ عزة الميلاء، وجميلة وسلاَّمة القَس وسلاَّمة الزرقاء.

عزة الميلاء

مولاة للأنصار، وهي أقدم مغنيات المدينة، وكانت تغنى أولا أغاني القيان من القدائم مثل سِيرين وزرنب وخَولة والرباب وسلْمى ورائقة، وكانت أستاذتها، فهي التي خرجتها. ولما قدم نشيط المدينة أخذت عنه، وكذلك أخذت عن سائب خاثر، فكانت أقدم من غنى الغناء الموقع بالحجاز من الجواري[١].

وكانت عزة من أجمل النساء، يقول طُويس هي سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع[٢]. وكان لها دار اتخذتها تغنى فيها الناس[٣]. وقد سمعها حسان ابن ثابت وأُعجب بها[٤]، ويقال إنها فتنت رجال المدينة ونساءها فتنة شديدة[٥]، وممن شغف بها ابن أبى عتيق[٦]، وقد قصدها هو، وعبد الله بن جعفر، وعمر بن أبى ربيعة يوماً فغنتهم، وغنت عمر في شيء من شعره، فشَقَّ ثيابه، وصاح صيحة عظيمة، صعِقَ معها من شدة الطرب[٧].

وجمعت عزة بين الغناء القديم والحديث فكانت تضرب بالمزاهر والمعازف القديمة، كما كانت تضرب بسائر الآلات الحديثة[٨]. ويذكر صاحب الأغاني بين تلامذتها ابن سريج وابن محرز[٩] في مكة والبردان[١٠] في المدينة. وعاشت حتى لحقت جميلة وغنت في دارها[١١].

---

[1] أغاني (طبع بولاق) ١٣/١٦ وانظر أغاني طبع دار الكتب، ٣٢١/٨.

[2] أغاني ١٤/١٦.

[3] أ غاني ١٤/١٦.

[4] المصدر نفسه ١٦/ ١٤وما بعدها.

[5] المدر نفسه١٩/١٦ وما بعدها وانظر ٥٥/١٠.

[6] المصدر نفسه١٩/١٦ وانظر ٣٨/١١.

[7] المصدر نفسه ١٤/١٦.

[8] المصدر نفسه ١٤/١٦ وانظر أغاني٢١٢/٤.

[9] أغاني ١٤/١٦ وانظر أغاني ٣٧٨/١.

[10] أغاني ٨/ ٢٧٧.

جميلة

مولاة بنى بهز من بنى سلَيم وكان لها زوج من موالى بنى الحارث بن الخزرج، وكانت تنزل فيهم فغلب عليها ولاء زوجها، فقيل إنها مولاة الأنصار[١٢]. وهي أصل من أصول الغناء في المدينة، وقد سئلتْ أنَّى لك هذا الغناء، فأجابت: "كان أبو جعفر سائب خاثر لنا جارا وكنت أسمعه يغنِّي ويضرب بالعود فلا أفهمه، فأخذت تلك النغمات فبنيت عليها غنائي.. وسمعني مولياتي يوماً وأنا أغني سرا، ففهمنني، ودخلن على، وقلن: قد علمنا فما تكتمينا، فأقسمن على، فرفعت صوتي وغنيتهن، فحينئذ ظهر أمري، وشاع ذكري، فقصدني الناس وجلست للتعليم، فكان الجواري يتكاوسنني (يتزاحمن حولي) فربما انصرف أكثرهن ولم يأخذن شيئا. ولقد كسبت لموالى ما لم يخطر لهن ببال، وأهل ذلك كانوا وكنت"[١].

واتخذت جميلة لنفسها في المدينة داراً كبيرة، وكانت هذه الدار تمتليئ بالمغنين والجواري، وتقام فيها حفلات باذخة للغناء، وكان يشترك في هذه الحفلات بعض المغنين من مكة أحياناً مثل ابن مِسجح وابن سريج والغريض وابن محرز[٢]. وكذلك كان يشترك فيها المغنون من المدينة من مثل معبد ومالك بن أبى السمح الطائي وابن عائشة ونافع بن طُنْبورة وغيرهم كثر[٣]. وكما كانت تكتظ دار جميلة بالمغنين كانت تكتظ كذلك بالمغنيات من مثل سلامة القس وسلاّمة الزرقاء وحبابة وخُلَيدة وربيحة وعقَيلَة العقيقية وفَرعة وبلْبلة ولذة العيش[٤].

وبلغ ا الغناء في دار جميلة كل ما كان ينتظره من رقى وازدهار إذ عرف الغناء المصحوب بالجوقات الكبيرة[٥]، كما عرف الغناء المصحوب بالرقص والضرب ع!! الآلات الموسيقية الكثيرة[٦]. وكثيراً ما كانت جميلة تجمع سكان المدينة وتقوم باستعراض كبير يضم

---

(11) أغاني ١٤/١٦.

(12) أغاني ١٦٨/٨

(1) أغاني ١٨٧/٨.

(2) المصدر نفسه ١٨٨/٨ وما بعدها

(3) أغاني١٨٨/٨ وما بعدها.

(4) المصدر نفسه ٨/ ١٨٦، وانظر ٢٠٩/٨ حيث تجد ثبتاً بأسماء من كان عندها من المغنيات والمغنين.

(5) أغاني ٢١٨/٨ وكذلك ٢٢٧/٨.

(6) المصدر نفسه ٢٢٦/٨.

مشاهير المغنين والمغنيات، لا في المدينة فقط، بل في مكة أيضاً[٧]. وكأن جميلة أبت أن تترك بعدها) للمغنين ما يحدثونه، ولعله من أجل ذلك كان معبد يقول أصل الغناء جميلة وفرعه نحن، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين[١]. وعاشت حتى عصر يزيد[٢] بن عبد الملك.

سلاَّمة القَس

مولَّدة من مولدات المدينة أخذت الغناء عن جميلة ومعبد وابن عائشة[٣]، وإنما سميت سلاَّمة القَس لأن أحد قراء أهل مكة وكان يسمى عبد الرحمن ابن أبى عمار الجشَمِي، ويلقب بالقَس لعبادته سمعها، فشُغِفَ بها وشُهر، وفيها وفى أختها ريا يقول ابن قيس الرقيات:

لقد فتنتْ ريا وسلاَّمةُ القَسا ... فلم تتركا للقَس عقلاً ولا نَفْسا

فتاتان أما منهما فشبيهةُ الـ ... ـهلال وأخرى منهما تشبه الشَّمسا[٤]

وكانت سلامة جميلة، وطارت شهرتها، فطلبها يزيد بن عبد الملك واشتراها من مولاها بعشرين ألف دينار. ويقال إن أهل المدينة جاءوا يشيعونها حين أرادت الخروج، فملأوا رحبة القصر ووراء ذلك، فوقفت بينهم، ومعها العود، فغنتهم:

فارقونى وقد علمتُ يقيناً ... ما لمن ذاق مِيتةً من إيابِ

ولم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت والناس وراءها ينتحبون ويبكون[٥] واستمرت عند يزيد حتى توفى فرثته بشعر من تأليفها وناحت به عليه[٦]. ويروى أبو الفرج أن الوليد بن يزيد طلب إليها أن تغنيه شعرها في أبيه فغنته، وهي تتنغص من ذلك وتدمع عيناها[٧]، وعاشت بعد الوليد[٨]، ولكن يظهر أنها لم تعمر طويلاً.

---

[7] انظر المصدرنفسه١٨٨/٨ وكذلك٢١١/٨- ٢١٢.

[1] أغاني١٨٦/٨.

[2] أغاني ٦٧/٩.

[3] المصدر نفسه ٣٣٤/٨.

[4] أغاني ٣٣٧/٨.

[5] أغاني ٣٤٣/٨.

[6] أغاني طبع دار الكتب ٣٣٣/٨ وكذلك ٣٤٦/٨.

[7] المصدر نفسه ٣٤٨/٨.

[8] المصدر نفسه ٨/ ٣٣٤

سلامة الزرقاء

تلميذة جميلة[١]، وكان يقال إنه لم ير في النساء بعد القيان الحجازيات مثل جميلة وعزة الميلاء وسلاَّمة الزرقاء[٢]، ويظهر أنها كانت بارعة الحسن، قضت أول حياتها في دار جميلة[٣]، حيث كانت تعلم بعض الجواري الغناء[٤]. واشتراها ابن رامين أكبر تاجر للقيان في الكوفة، ففتنت هناك كثيراً من الشبان والشعراء، وعلى رأسهم محمد بن الأشعث وفيها يقول:

أمسى لسلامةَ الزرقاء في كبِدى صدع مقيم طوالَ الدهر والأبدِ[٥]

واشترى ابن رامين من مغنيات المدينة أيضاً ربيحة وسعدة، وكان أهل الكوفة يغشون منزاله يستمعون إ إليهما. وحج ابن رامين وأخذ جواريه معه فقال إسماعيل ابن عمار الأسدي واصفاً كيف علت حينئذ الحسرات نفوس أهل الكوفة وأفئدتهم:

أيةُ حالٍ يا بن رامينِ حالُ المحبين المساكينِ

تركتهم موتى ولم يتْلفوا قد جرعوا منك الأمرين

وسرتَ في ركبٍ على طِية ركبِ تهامٍ ويمانينِ

يا راعي الذَّودِ لقد رعتَهم ويلك من روع المحبين[٦]

فرقتَ جمعاً لا يرى مثلهم بين دروب الروم والصينِ[٧]

وعادت الزرقاء إلى الكوفة مع صواحبها، وعادت معها الفتنة والإغراء، فكان يذهب إلى دار ابن رامين كثير من نبلاء القوم، وعلى رأسهم معن بن زائدة، و روح بن حاتم، وابن المقفع. ويقال إنهم استمعوا إليها وإلى سعدة يوماً ثم خرجوا فأرسل معن إليها بدرة وكذلك روح، ولم يكن مع ابن المقفع مال فأرسل إليها بصك ضيعة له[٨] ويقال إن أحد الصيارفة

---

[1] أغاني٨/٢٠٨ وكذلك ٨/٢٣٠.

[2] أغاني ١٨/١٧٥.

[3] أغاني ٨/٢٣٠.

[4] المصدر نفسه ٣/٢٥٥

[5] أغاني ١٠/١٣٥.

[6] الذود: الطائفة الصغيرة من الإبل

[7] انظر أغاني ١٣/١٢٧.

[8] انظر أغاني ١٣/١٣٢.

سمعها، فأدخل يده في ثوبه، وأخرج لؤلؤتين قيمتهما أربعون ألف درهم وأعطاهما لها[١]. وأخيراً اشتراها جعفر بن سليمان وإلى المدينة بثمانين ألف درهم[٢].

وأظن أننا لسنا في حاجة هنا إلى أن نعيد ما قلناه في خاتمة حديثنا عن المغنين من أن المدينة كان لها أكبر الفضل في الحركة الغنائية التي ظهرت في العراق في أثناء العصر العباسي. وهذه سلامة الزرقاء، وصاحبتاها ربيحة وسعدة يذهبان إلى الكوفة، وقد أخذن معهن فن الغناء الذي كان قد استوى له في المدينة كل ما يمكن من رقى وازدهار. ولا ريب في أن هناك أخريات ذهبن إلى العراق وأثرن فيه مع هؤلاء الجواري واستطعن هن وتلميذاتهن كما استطاع معهن من ذهب إلى العراق من المغنين وتلاميذهم هناك أن ينهضوا بالغناء هذا النهوض الذي يقصه صاحب الأغاني عن إبراهيم الموصلي، وابنه إسحق، وإسماعيل بن جامع، وفليح بن أبى العوراء، وزلزل، وعلوية من المغنين، وفريدة، وبذل، وذات الخال، ومتيم، وعريب، ودنانير، من المغنيات.

والحق أن المدينة هي التي هيأت لنمو الغناء عند العرب هذا النمو الذي جعله يتحول من صناعة بسيطة إلى صناعة معقدة لها تقاليدها ورسومها، وهي صناعة بلغت مبلغاً عظيماً من السحر والفتنة على أيدي وألسنة كثير ممن برعوا في الغناء براعة هائلة.

---

[1] أنظر أغاني ١٣/١٣٢.

[2] المصدر نفسه ١٣/١٣١ وأنظر ١٠/١٣٦.

الفصل الثالث

الشعر والأغاني في المدينة

(١) الشعر في المدينة

من يرجع إلى المدينة منذ العصر الجاهلي يجد الشعر فيها كثيراً كثرة مفرطة. روى ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال: " قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر، قيل له: وأنت أبا حمزة؟ قال: وأنا "[١]. ولعل مما يؤكد كثرة الشعر والشعراء في المدينة حينئذ أن نجد ابن سلام يتحدث في طبقاته عن شعراء القرى العربية مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحر ين، فيقول: أشعر هذه القرى قرية المدينة، ويذكر أن شعراءها الفحول في الجاهلية خمسة، ثلاثة من الخزرج، واثنان من الأوس، فأما شعراء الخزرج، فهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وأما شاعرا الأوس فهما قيس بن الخطيم وأبو قيس بن الأسلت[٢] وقد عقد لهم أبو الفرج- عدا عبد الله ابن رواحة- فصولاً طويلة في كتابه الأغاني[٣].

كان الشعر إذن أهم فنون الأدب في المرحلة الجاهلية بالمدينة، واستمر له شيء غير قليل من أهميته في ابتداء المرحلة الثانية التي مرت بها، مرحلة الرسول والخلفاء الراشدين، فإن قريشا أخذت تهجو رسول الله وأصحابه بعد هجرتهم منها إلى المدينة، فرأى أن يستعين عليها بشعراء الأنصار. روى أبو الفرج في أغانيه أنه كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة رهط من قريش: عبد الله بن الزبعري وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص، فقال النبي للأنصار: " ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن

---

[1] ابن عبد ربه ١٢٣/٣.

[2] طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٢.

[3] انظر أغاني ١/٣ وكذلك ١٣٤/٤وانظر أغاني ٢٦/١٥ وأيضا ١٦٠/١٥.

ينصروه بألسنتهم "، فتصدى لهم حسان بن ثابت كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة[١]. وكان حسان كعب يعارضانهم بمثل قولهم: بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله ابن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان كعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة[٢]. واستمع النبي صلى الله عليه وسلم يوماً إلى حسان وهو ينشد بعض أشعاره في هجاء قريش فقال: " لهذا عليهم أشد من وقع النبل"[٣].

واستمرت هذه النبال تصوب من المدينة إلى مكة طوال حربها مع النبي، حتى إذا فتحت مكة وقفت هذه الحرب اللسانية وأخذ المسلمون وشعراؤهم يهدءون، بل لقد هجر بعض الشعراء نظم الشعر، هجره حسان بن ثابت، أوكاد، وهجره كعب بن مالك وهجره غيرهما. وهذا طبيعي لأن وقود الشعر العربي في المرحلة الجاهلية كما قدمنا الثأر، والإسلام ينهى عن الثأر، وأيضاً فإنه ينهى عن الثلب والهجاء، ويدعو المسلمين إلى أن يكونوا إخوة متحابين ومعنى ذلك أن دواعي الشعر أخذت تضعف، وساعد على هذا الضعف أن العرب شغلوا بعد وفاة النبي بالفتوح وتمصير الأمصار، وصرفهم ذلك عن الشعر إلا طائفة قليلة أخذت تقول الشعر كما كانت تقوله في الجاهلية، وكان علي رأس هذه الطائفة الحطيئة.

وقصة الحطيئة مع الزبرقان، واستعداؤه عليه عمر لما كان من هجائه إياه مشهورة، فقد حبسه عمر، واستعطفه الحطيئة بشعر، ذكر فيه أفراخه بذى مرخ، فعطف عليه عمر وأطلقه بعد أن أخذ عليه المواثيق ألا يعود إلى الهجاء، ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بعطاء[٤] وفى الأغاني أن عمر نهى الناس أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش، وقال: في ذلك شتم الحي بالميت وتجديد الضغائن[١]، ويقال إنه انتهر حسان بن ثابت إذ سمعه ينشد بعض هذا الشعر[٢].

---

[1] أغاني ١٣٧/٤.

[2] المصدر نفسه ١٣٨/٤.

[3] المصدر نفسه ١٤٣/٤.

[4] أغاني ١٨٩/٢.

[1] أغاني ١٤٠/٤.

[2] المصدر نفسه ١٤٣/٤.

وكما كره عمر للشعراء أن يتعرضوا للمسلمين وأعراضهم بالهجاء، كذلك كره لهم أن يتعرضوا لنسائهم وبناتهم بالتشبيب والغزل، فتقدم لهم ألا يشبب أحد بامرأة إلا جلده، مما اضطر حميد بن ثور أن يشبب بسرحة (شجرة)، وأن يقول في تشبيبه:

فهل أنا إن علّلْتُ نفسي بسرحة من السرح موجود علي طريقُ[٣]

ويذهب عمر، ويأتي عثمان فيسير سيرة صاحبه من النهى عن التعرض للأعراض، وقد حبس ضابيئ بن الحارث البرجمي لإقذاعه في الهجاء، وبقي في سجنه حتى مات[٤].

وعلى هذا النحو أخذ فن الشعر يضعف بضعف دواعيه في عصر الخلفاء الراشدين إلا ما كان في حروب على ومعاوية، فقد رجع الشعراء يعيدون السيرة القديمة من السب والتنابذ بالألقاب[٥]. لكن هذه الحركة لم تكن في المدينة نفسها، إنما كانت في العراق مع الجيوش المقتتلة هناك.

وإذا انتقلنا إلى العصر الأموي وجدنا الشعر ينهض في المدينة نهضة واسعة، وكأن المدينة عادت في هذا العصر إلى حال تشبه حالها في الجاهلية إذ كان الشعر أهم فنون الأدب التي تمارسها، وقد هجرته في عصر الخلفاء الراشدين أو كادت، ولكنها سرعان ما رجعت إليه وأوغلت فيه.

ونحن نعرف أن الإسلام نفى اليهود عن المدينة وقد سكنتها جماعة كبيرة من قريش هاجرت إليها قبل النبي صلى الله عليه وسلم وبعده، كما نزحت إليها جماعة كبيرة من الموالى الأجانب الذين استرقهم أهلها في فتوحهم وانتصاراتهم في بلاد الفرس والشام ومصر.

وهذا الخليط من قريش والأنصار والموالى في المدينة كان له نشاط واسع ى الشعر في أثناء هذا العصر، وآية ذلك كثرة التراجم التي عقدها أبو الفرج في أغانيه لشعرائهم جميعاً، وهي تراجم تتضمن أخبارهم، كما تتضمن طرائف من أشعارهم، وخاصة التي غَنَّى فيها المغنون. وأشهر من ترجم لهم من قريش عبد الرحمن ابن الحكم[١]، من بيت بنى أمية، وعبد

---

[3] أغاني ٣٥٧/٤.

[4] ابن سلام ص ٤٠، وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة طبع ليدن ص ٢٠٢ وما بعدها.

[5] المسعودى ٤٦/٥.

[1] أغاني ٧٢/١٢ وكذلك ١٣/ ١٥٠.

الله[٢] بن الحسن بن الحسن بن على من بيت العلويين، وعبد الرحمن[٣] بن أبى بكر الصديق من بيت أبى قحافة وجعفر[٤] بن الزبير من بيت الزبيرين، والحسين[٥] بن عبد الله بن عبيد الله ابن العباس بن عبد المطلب من بيت العباس[٦]، وعروة بن أذينة من بنى ليث ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة. وأشهر من ترجم لهم أبو الفرج من حلفاء قريش ابن أرطاة[٧]، وعبيد الله[٨] بن عبد الله بن عتْبة بن مسعود وهو من حلفاء بنى زهرة وعِداده فيهم، ثم ابن هرمة[٩]، وهو من الخُلج، ويقال إنهم من قريش، وأدرك العصر العباسي.

وقد ترجم أبو الفرج بجانب هؤلاء القرشيين وحلفائهم لجماعة من شعراء الأنصار المهمين، وكان شعراء الأنصار في المدينة هذا العصر أكثر نفراُ من شعراء قريش. وهذا طبيعي فقد كان في الأنصار بيوت كثيرة تشتهر بالشعر منذ العصر الجاهلي، كبيت حسان بن ثابت، وقد ترجم صاحب الأغاني لشاعرين منه في هذا العصر، وهما عبد الرحمن بن حسان[1] وابنه سعيد[2]. وبجوار بيت حسان نجد بيت كعب ابن مالك، يقول صاحب الأغاني: لكعب أصل أصيل وفرع طويل في الشعر، ابنه عبد الرحمن شاعر، وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر، ومعن بن عمر ابن عبد الله بن كعب شاعر، وعبد الرحمن بن عبد الله شاعر، ومعن بن زهير بن كعب شاعر وكلهم مجيد مقدم[3]. ووراء هذين البيتين الكبيرين للشعر في هذا العصر نجد كثيرا من شعراء الأنصار ترجم لهم صاحب الأغاني مثل النعمان بن بشير[4]

---

[2] المصدر نفسه ٢٠٣/١٨.

[3] المصدر نفسه ٩٣/١٦.

[4] أغاني ١٠٤/١٣.

[5] المصدر نفسه ١٦٩/١٠.

[6] أغاني ١٦٢/٢١.

[7] انظر الأغاني ٢٤٢/٢.

[8] المصدر نفسه ١٣٩/٩.

[9] المصدر نفسه ٣٦٧/٤.

[1] ترجم أبو الفرج لعبد الرحمن بن حسان ترجمة متداخلة معبد الرحمن بن الحكم، انظر الأغاني ٧٢/١٢ وكذلك ١٥٠/١٣.

[2] انظر أغاني ٢٦٩/٨.

[3] أغاني ٢٧/١٥.

[4] أغاني بولاق ١١٩/١٤

والسري بن عبد الرحمن[5]، وعلى رأس هؤلاء جميعا الأحوص شاعر المدينة في هذا العصر غير مدافع.

ويأتي في إثر هؤلاء الشعراء من قريش وحلفائهم ومن الأنصار طائفة من شعراء الموالى مثل موسى شهوات وكان يلقب بشهوات لأنه كان سئولا ملْحِفاً، وقيل لأن امرأته كانت تقول ما يزال موسى يجيئنا بالشهوات، فغلبت عليه[6]. وأصله من أذربيجان، وقيل ليس بالمدينة شاعر من الموالى إلا وأصله من أذربيجان[7]، واشتهرت من هؤلاء الموالى أسرة بالشعر هي أسرة يسار النسائي، فقد كان ابنه إسماعيل شاعراً مهماً، ترجم له صاحب الأغاني ترجمة مستفيضة[8]، وكذلك كان ابناه محمد وإبراهيم شاعرين[9]، وكانت فيهم جميعاً نزعة إلى الشعوبية، وروى صاحب الأغاني شعر لإسماعيل يفْصح في وضوح عن هذه النزعة[10].

أرأيت إلى هذا الحشد الحاشد من الشعراء الذين عاشوا في المدينة لهذا العصر وترجم لهم صاحب الأغاني، وهو لم يترجم لكل شاعر نبت في المدينة حينئذ، إنما ترجم للمشهورين منهم. وليس من شك في أن هذا الحشد يدلُّ دلالة قاطعة على مدى ما كان في المدينة من نهضة للشعر، وهي نهضة واسعة تجعل الإنسان يظن أن أهل المدينة كانوا جميعا يصطنعون الشعر في هذا العصر حتى الموالى منهم كانوا ينظمونه ويصنعونه.

(٢) الشعر الأغاني

وإذا أخذنا نبحث الشعر العربي في المدينة في أثناء العصر الأموي وجدناه يتفرع إلى فرعين كبيرين: فرع تقليدي، وفرع للغناء هو الأغاني، ونقصد بالأول شعر الهجاء والمديح وما يتصل بهما، وبالثاني شعر الغزل الذي كان يغنى فعلا، يغنيه المغنون والمغنيات في المدينة، ويصحبون غناءهم بالضرب على الأدوات الموسيقية، وكان موضوعه غالباً الحب وما يتصل به.

---

[5] المصدر نفسه ١٨/٦٥

[6] أغاني ٣/٣٥١.

[7] الشعر والشعراء ص ٣٦٦.

[8] أغاني ٤/٤٠٨.

[9] المصدر نفسه ٤/٤١٢.

[10] المصدر نفسه ٤/٤١١ وكذلك ٤/٤٢٣

وإذا أخذنا نقارن بين هذين الفرعين الكبيرين للشعر في المدينة في أثناء العصر الأموي، عمر الغناء والمغنين وجدنا الفرع الثاني يتفوق على الفرع الأول تفوقاً شديداً سواء في كثرة من مارسوه، أو في كثرة ما جاء منه من نماذج فنية. وتحقيق هذه المسألة لا يحتاج إلى أكثر من قراءة تراجم الشعراء السابقين في كتاب الأغاني واستعراض ما خلفوه من شعر. ولعل أول ما يلاحظه قارئ الأغاني على هؤلاء الشعراء أن أغلب القرشيين منهم لم يعنَوا بالشعر التقليدي أي عناية، فعبد الله بن الحسن إنما يروى له صاحب الأغاني غزلاً، وكذلك هو يروى لعبد الرحمن بن أبى بكر ولجعفر بن الزبير وللحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس. وطبيعي ألا يؤثر عن هؤلاء السادة مديح، وفيمن يمدحون؟ وهم يرون أنفسهم خليقين بالمدح، وأنه كان أولى بالشعراء الذين يمدحون ملوك بنى أمية أن يمدحوهم، وهم كذلك كانوا يرفعون أنفسهم عن الإسفاف وأن ينزلوا من سمائهم إلى السب والقذف، لذلك كله لم يتركوا مديحاً ولا هجاء، وإنما تركوا شعراً يعبر عن عواطفهم الخالصة، وسرعان ما يسمع به المغنون والمغنيات أو يسمعونه لهم، فيقبلون على غنائه والترنم به.

ولم يتورط أحد من نبلاء قريش في الشعر التقليدي سوى عبد الرحمن بن الحكم قد أُغْرم بهجاء عبد الرحمن بن حسان. ويظهر أنه اضطُر إلى ذلك لأن عبد الرحمن كان يكثر من هجاء معاوية وبيته، فرد عليه، وسرعان ما استعر الهجاء بينهما[1]. ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن عبد الرحمن بن حسان حين أراد أن يهاجم معاوية ابتكر طريقة سار عليها كثير من شعراء الحجاز وهي أن يهاجمه عن طريق الغزل بابنته. وهكذا تغزل في رملة بنت معاوية، وغاظ ذلك أخاها يزيد فيما يقول الرواة[2].

ويذهب عبد الرحمن بن حسان فلا يخلفه من يقوم على هجاء بنى أمية، فقد أذعنت المدينة لهم منذ موقعة الحرة، ولعلها من أجل ذلك لم يظهر بها شعر سياسي مما ظهر في هذا العصر عند شعراء الأمويين من مثل الأخطل، أو شعراء الشيعة من مثل الكُميت، وحتى ابن الزبير لم يكن له شاعر بالمدينة، بل حتى عبد الله بن حنظلة لا نجد في المدينة من يرثيه لاهو، ولا قتلى الحرة، إنما يرثيه ويرثيهم ابن قيس الرقيات بقصيدته المشهورة:

---

[1] أغاني ١٣/١٥٠.

[2] أغاني ١٤/١١٢.

ذهب الصبا وتركت غِيتِيه ورأى الغَواني شَيب لِمتِيه[1]

لم ينْم الشعر التقليدي في المدينة هذا النمو الذي أتاح في بيئات أخرى للشعر السياسي أن يظهر وأن يكُثر، لأن المدينة كانت تتخفف، ولم ترد أن تتورط في شغب قد يؤذيها.

وقد أسلمت المدينة لعبد الملك، ولم يعد يوجد فيها شاعر يغنى بهجاء بنى أمية، بل إن سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ينزع عن مذهب أبيه، ويتخذ مذهب المدينة وما كان يشيع فيها من ملق للأمويين، فيمدحهم ويصلونه[2]. وكذلك كان الأحوص يمدح الأمويين وينال صلاتهم[3]، وقد تخصص ابن هرمة في مديح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك عامل المدينة لمروان بن محمد، وفيه يقول[4].

يكاد بابك من جود ومن كرمٍ من دون بوابع للناس يندلقُ

وربما كان المدح أكثر شيوعاً في شعراء المولى بحكم أنهم أجانب وأن مركزهم الاجتماعي يجعلهم في حاجة إلى التكسب كما يجعلهم أكثر استعداداً للتذلل والتضرع وكانوا يمدحون النبلاء الذين يجاورونهم من أهل المدينة ولم يكن هواهم على العموم مع بنى أمية، لأن النبلاء الذين يعيشون معهم لم يكونوا من هوى بنى أمية، ثم بنو أمية غرفوا بتعصبهم للعرب على الموالى، فكان ذلك مدعاة لأن يكتفوا بمديح من يجاورونهم من الأشراف والسادة. ومع ذلك كله نجدهم يفدون على الأمويين يمدحونهم وينالون جوائزهم، ففي الأغاني أن خلفاء بنى أمية كانوا يحسنون إلي! موسى شهوات ويدرون عطاءه، وتجيئه صلائهم إلى الحجاز[5]. وكذلك كان إسماعيل بن يسار يفِد عليهم ويجيزونه، مع أنه كان كالمنقطع إلى عروة ابن الزبير[6].

على إننا إذا أخذنا نقيس مديح هؤلاء الشعراء إلى ما أنتجوه هم أنفسهم من شعر في الحب والغزل غنى فيه المغنون والمغنيات في المدينة لم نجده شيئاً مذكوراً. والحق أن من يبحثون

---

[1] ديوان بن قيس الرقيات(طبع فينا) ص ١٨٦.

[2] أغنى طبع دار الكتب ٢٦٩/٨.

[3] المصدر نفسه ٢٤٨/٤ وما بعدها.

[4] أغاني ١٠٣/٦.

[5] أنظر في ٣٦٥./٣

[6] المصدر نفسه ٤٠٤/٨.

عن شعر المديح في هذا العصر ينبغي ألا يبحثوا عنه في المدينة، إنما يبحثون عنه في العراق عند جرير والفرزدق والأخطل شاعر البلاط الأموي المشهور ومن نهج نهجهم.

لم تكن المدينة متفوقة هذا العصر في شعر المديح، وهي كذلك لم تكن متفوقة في شعر الهجاء، وليس معنى ذلك أنه لم يوجد فيها هجاء، فقد كان بعض هؤلاء الشعراء الذين سميناهم ومعهم الأحوص يعنون بالهجاء أحياناً، ولكنهم لم يتخصصوا به على نحو ما نجد في العراق التي أنتجت في هذا العصر النقائض المعروفة بين جرير والفرزذق أو بين جرير والأخطل.

ولعل من الطبيعي ألا يسود الشعر التقليدي من هجاء وغر هجاء في المدينة هذا العصر، لأن المدينة لم تكن محافظة، ولم تكن تسير في حياتها على النهج الجاهلي، كما سارت قبائل العراق، بل لقد كانت مجددة، وقد أصابت حظوظاً من الترف والنعيم، فكان من نتائج ذلك أن نفرت إلى حد ما، مما يمثل حياة العرب القديمة وخاصة هذه الحياة التي تقوم على الصعوبة في الخلق والخشونة، فيكون الهجاء، ثم هي كانت من الثروة والترف بحيث لا تحتاج إلى مال بنى أمية وبحيث يضطرها هذا المال إلى أن تسرف في مديحها للأمويين، ثم هي كانت معارضة لبنى أمية، فلم يطلب منها الأمويون شعراء المدح الذين يباهون بهم الأقاليم الأخرى وشعراءها.

وبجانب ذلك كله كانت المدينة مكتظة بدور الغناء والمغنين والمغنيات، وكانت هذه الدور تطلب دائما غزلا يغنى، وكان هذا الغزل هو الذي يشيع، لأن أشراف المدينة وسادتها كانوا يطلبونه لمغنيهم ومغنياتهم، وكانوا إذا فقدوه في المدينة طلبوه في شعر البادية[١]، وهل تظن أن أحداً من الشعراء الذين عيناهم اشهر في المدينة هذا العصر وهو لا ينظم غزلا؟ إنهم جميعاً كانوا أصحاب غزل ينظمونه، وبهذا الغزل نالوا شهرتهم في عصرهم، بل إن كثيراً منهم لم يؤثر عنهم شعر تقليدي كأكثر شعراء قريش وبعض شعراء الأنصار من مثل السري بن عبد الرحمن، وفيه يقول صاحب الأغاني:" إنه كان أحد الغزلين"[٢]. وعلى هذا النحو كان كثير من شعراء المدينة يقصر نفسه على الغزل وحكاية عواطف الحب، إما لأنه من سادتها أو لأنه يريد أن يرضى دور الغناء فيها. وكان من يكون شاعراً من هؤلاء السادة يتخصص

---

[1] أغاني ٤/٢١٣.

[2] أغاني ١٨/٦٥

بشعره بعض المغنين أو المغنيات، يغنيه له، فقد روى صاحب الأغاني أن مالك بن أبى السمح كان يتغنى[٣]، في أشعار الحسن ابن عبد الله بن العباس.

وكما كان يتخصص بعض المغنين بشعر بعض سادة المدينة كان يتخصص بعض آخر بشعر شاعر ممتاز ولو لم يكن من كبار الأشراف والسادة. وكانت المغنيات خاصة تتعلق بشعر الأحوص إذ كن يعجبن به وبشعره. كانت تعجب به جميلة[1] وسلاّمة[2] وغيرهما

وأخذ المغنون يشتهرون بمجموعات من هذه الغزليات التي كان ينتجها الشعراء، وكانوا هم يغنون فيها، فيونس الكاتب يشتهر بزينبيات ابن هرمة، وهي قطع كلها في زينب بنت عِكْرمة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام[3]، وحتى عمر بن عبد العزيز وهو وال على المدينة نجده يشهر بسعادياته، وهي سبعة ألحان تذكر فيها كلها سعاد[4].

ومهما يكن فإن الغزل كان هو الشغل الشاغل للمدينة في هذا العصر، وكان الشعراء يهتمون به اهتماماً شديداً، وقد توفروا عليه من قرشين وأنصار وموال كل يريد أن يحدث فيه ما يشتهر به بين أبناء عصره، واستطاعوا أن ينهضوا به نهضة واسعة إذ حشدوا أنفسهم له، وكادوا ألا يستبقوا من ملكاتهم شيئا لفن آخر، لا لخطابة ولا لكتابة ولا حتى لشعر تقليدي. ولعل من أطرف ما يروى في هذا الصدد أن أحد أبناء المدينة سأل جريراً أن يسمعه بعض شعره، وشعره كله على ما نعرف تقليدي: مدح وهجاء، فأبى عليه أن يسمعه شيئاً قائلا: يا أهل المدينة إنما يعجبكم النسيب[5].

كانت المدينة بلدة النسيب كما يقول جرير في هذا العصر وكان يغنيه طُويس وسائب خاثر ومعبد وجميلة وسلاّمة وغيرهم من المغنين والمغنيات. واستطاعت المدينة أن تظفر بطائفة كبيرة من الشعراء تجد عندها ما يغنيه هؤلاء المغنون الكثيرون، بل قل ما يغنيه هؤلاء

---

[3] المصدر نفسه ١٠/ ١٧٠.

[1] أغاني ٨/ ٢٠١.

[2] المصدر نصه ٢٣٧/٨

[3] أغاني ٤/ ٤٠٥

[4] الأغاني ٢٥٤/٩.

[5] أغاني ٧٦/١.

المغنون الكثيرون على أدواتهم الموسيقية المختلفة. وسنقف قليلا نتحدث عن هذا الشعر ونتعرض لأهم مميزاته.

(٣) خصائص في مضمون الغزل وأغانيه

لعل أول ما يلاحظ على الأغاني التي كان يغنيها المغنون والمغنيات في المدينة أنها كانت مقطوعات قصيرة، فهم لا يغنون قصائد، وإنما يغنون بيتين أو ثلاثة أو أربعة، ومهما أطالوا فلن يتجاوزوا سبعة أبيات إلا في النادر. على أن بعض المغنين كان يأبى أن يغنى في أكثر من بيتين[1].

وهذه القطعة الصغيرة التي كانت تغنَّى كانت تُختار من الشعر التقليدي أحيانا، فقد تكون مديحا أو تكون حماسة أو رثاء أو حكمة، ولكن ليس هذا هو الغالب، إنما الغالب أن تكون غزلاً بحيث إذا قلنا إن الغزل كان موضوع الأغاني في المدينة لم نبعد. وهو غزل قصير لم يستطع الشعر القديم أن يمد المغنين والمغنيات منه إلا بقطع قليلة، لأن الغزل لم يكن الموضوع الغالب على الشعر الجاهلي، إنما كان يغلب عليه الحماسة والهجاء. ومن ثم كان من الضروري أن يجد المغنون والمغنيات حاجتهم من شعر حديث يؤلف لهم، شعر يكون موضوعه الحب: حياته وموته ووقائعه، وليس من الضروري أن يكون قصائد طويلة، بل يكفى أن يؤلف الشاعر طائفة صغيرة مختارة من الأبيات فيغنيها المغنون والمغنيات ويجدوا فيها طَلِبتهم.

وقد أقبل شعراء المدينة على هذا الغزل يؤلفونه، وأقبل من ورائهم شعراء البادية وشعراء مكة. ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد في المدينة إلا وهو ينظم من هذا الشعر الذي تطلبه دور اللهو وقصور النبلاء والأشراف من رجال ونساء كي يغنيه مواليهن من مغنيات ومغنين. وهكذا لم تعد المدينة تغنى بالشعر الذي كان يقال في حروبها القديمة، حرب بعاث وغيرها، وكذلك لم تعد تعنى بالشعر القديم كله، فقد صبتْ عنايتها على هذا الشعر الجديد الذي كان يحكى قصة الحب، ويصور لواعجه وحوادثه. وقد يعنى شاعر المدينة بالمديح فلا يعنى به

---

[1] انظر الأغاني ١/٣٧٩.

الناس، ولا يعنى به المغنون إلا أن يكون في خليفة أو أمير كبير، ويذهبوا إليه يطلبون جائزته، فيغنوا له بهذا الشعر الخاص[2].

ونقول الخاص لأنه فقد الآذان التي تُعنَى به في المدينة ولم تعد هناك أذن تحب أن تسمع سوى الشعر الحديث الذي يغنِّى فيه طُويس ومعبد جميلة وسلامة ومن إليهم، فهو الشعر العام الذي يستهوى جميع القلوب والأفئدة.

أصبحت المدينة لا تعنى إلا بهذا الغزل الجديد، وقد كان يخالف إلى حد كبير نسيب القدماء، الذين لم يكونوا يخصون نسيبهم بمقطوعات خاصة على نحو ما نعرف في هذا العصر، بل كانوا يسوقون النسيب في مطلع قصائدهم كأنه ليس غايتهم من أشعارهم، إنما هو يأتي تبعاً، أما في هذا العصر فقد أصبح الغاية كلها. وأيضاً فإنهم كانوا يعنون ببكاء الديار ووصف أثر ارتحال المرأة مع قومها، أما في هذا العصر فقد كان أهل المدينة مستقرين، وكذلك كانت ديارهم، فلم يعد لشعرائهم ولا لمغنيهم حاجة بهذه الصورة القديمة من النسيب إلا حين يريدون أن يقلدوا القدماء.

كان غزل المدينة يختلف في صورته عن النسيب القديم لا مما قدمنا فقط. بل أيضاً من أن الشاعر كان يقصد في القطعة التي يعالجها إلى تصوير حبه وما يلقي فيه من وصب وعذاب. وبذلك كان غزله معنوياً أكثر من النسيب القديم، فالشاعر يعنَى فيه بحكاية خواطره، وقلما عني فيه بوصف المرأة وصفا حِسديا، وينبغي أن لا نفهم من ذلك أن أغلب غزل المدينة في هذا العصر كان غزلا عفيفاً، ففرق بين أن يكون الغزل معنوياً وأن يكون عفيفاً، ومر بنا ما كانت تنغمس فيه المدينة من حضارة وترف، وما كان يشعر به أهلها من حرية وهي حرية جعلت الغزلين منهم يعبرون في صراحة عن خواطرهم إزاء المرأة في شعرهم وماذا يمنعهم من هذا التعبير؟ وهم قوم لا عمل لهم إلا الفراغ وإلا اللهو، فتلك هي وظيفتهم حينئذ في الحياة، وهي وظيفة نعموا بها حيناً من الدهر، وكان لابد للغزل الذي يعبرون به عن خلجاتهم أن يفصح عن وظيفتهم، بل قل عن حياتهم، وهي حياة صريحة لا يتكلفون فيها ولا يتصنعون.

---

[2] أغاني ٢٩٧/١ وكذلك ٢٤٩/٤ وما بعدها.

كانت صورة الغزل في المدينة هذا العصر صورة صريحة لا التواء فيها ولا عوج، بل يحكى فيها الشاعر كل ما يقع له مع صواحبه، ومن هنا كنا إذا قلنا إن غزل المدينة في هذا العصر غزل صريح لم نكن مخطئين.

وليس معنى ذلك أن المدينة انتفى منها الغزل العفيف، وإنما معناه أن هذا هو الكثير الغالب، وقد يوجد بجانب هذا الكثير الغالب شعر عفيف فيه تسام، وفيه طهر، فقد كان من زهاد المدينة وفقهائها من تغزلوا وعبروا في غزلهم عن مثالية من العفاف والنبل دون سقوط في حكاية رغبات حسية أو لذائذ جسدية على نحو ما نعرف عند فقيه المدينة عبيد الله بن عبد الله بن عتبة.

وأيضاً ينبغي أن نعرف أن غزل الصريحين أنفسهم كان يختلف باختلاف المرأة التي يتغزلون فيها، فالمرأة العربية الكريمة من قريش أو من الأنصار لا يتغزلون بها في حرية على نحو تغزلهم بالقيان من الجواري المغنيات اللائي كن يبعن في الأسواق.

وليس من شك في أن هؤلاء القيان كان لهن أثرهن في شيوع الغزل الصريح بالمدينة وانتشاره، وكذلك كان شأنهن بمكة فقد كانت البيئتان تتشابهان من حيث الحضارة والترف ومن حيث وجود دور اللهو وهؤلاء القيان.

ولعلنا نستطيع بذلك أن نفهم شيوع الغزل العفيف في البادية عند جميل وكثير وأصحابهما، فقد كانت البيئة غير متحضرة، ولم يكن هناك هؤلاء القيان ولا هؤلاء الشبان المترفون من أهل المدينة.

على كل حال كان غزل المدينة في هذا العصر يتميز بألوان من الصراحة والحرية، فالشاعر فيه مرسل طليق لا يعوقه شيء عن التصريح بما يدور في نفسه. وقد شاع بين الشعراء بدع جديد هو أن يقصوا حوادثهم من غير تحفظ ولا تكلف، واستمع إلى هذه القصة ينظمها! إسماعيل بن يسار أحد الموالى هناك[1]:

كَلْثَم أنتِ الهم ياكلثم ... وأنتم دائي الذي أكتم

أكاتم الناس هوى شَقَّني ... وبعض كتمان الهوى أحزم

---

[1] أغاني ٤/٤١٦.

قد لُمتني ظلماً بلا ظنَّة ... وأنتِ فيما بيننا ألوم

أُبدِي الذي تُخفينه ظاهراً ... أرتد عنه فيك أو أُقْدِم

إما بيأسٍ منك أو مطمعٍ ... يسدى بحسن الود أو يلْحم[٢]

لا تتركيني هكذا ميتاً ... لا أُمنَح الود ولا أُصرم

أَوفى بما قلتِ ولا تندمي ... إن الوفي القول لا يندم

إيهِ بما جئت على رِقْبة ... بعد الكَرى والحي قد نوموا

أُخافت المشي حِذار العِدا ... والليل داج حالك مظلم

ودون ما حاولتُ إذ زرتكم ... أخوك والخالُ معاً والحم

وليس إلا الله لي صاحب ... إليكم والصارم اللَّهذَم

حتى دخلتَ البيتَ فاستذرفتْ ... من شَفَق عيناك لي تَسجم

ثم انجلى الحزن وروعاته ... وغُيب الكاشح والمبرِم[3]

فبتُّ فيما شيءت من نعمة ... يمنحنيها نَحرها والفم

حتى إذا الصبح بدا ضوؤه ... وغارتِ الجوزاء والمِرزم[1]

خرجتُ والوطْء خَفِي كما ... ينساب من مكمنه الأَرقَم[2]

وواضح أن إسماعيل يبدأ قصته بمخاطبة صاحبته كلثم وهو يعلن أنه حاول أن يكتم هواها، ويذكر ما كان من لومها إياه ويصف ما كان منه بعد ذلك، فهو يتردد بين اليأس والطمع، وما يزال بها يطالبها بما وعدته، ثم يقص علينا وعداً معها، فيروى كيف أنه زارها خلسة ذات ليلة وقد نام أهلها ورقباؤها، ويصف كيف كان يخفف مشيه حتى لا يشعر به أحد، وما يلبث أن يدخل بيتها فتبكى وتبلل خدودها بالدموع، ثم ينجلي الحزن، أو قل ينجلي إثر المفاجأة، حتى

---

[2] يسدى ويلحم: من سداة الثواب ولحمته أي ينسج إما ابتداء وإما انتهاء

[3] المبرم: الجليس الثقيل.

[1] المرزم: نجم.

[2] الأرقم: أخبث الحيات.

إذا بدا ضوء الصباح انصرف إسماعيل كما أقبل، يخفف من مشيه وسيره، كأنة أرقم ينساب من مكمنه.

أرأيت إلى هذه القصة القصيرة وما تصف في حرية وصراحة؟ إنها مثال هذا الغزل الذي شاع في المدينة والذي لم يكن إسماعيل بن يسار خير من يمثله، وإنما كان الأحوص الشاعر الأنصاري خير من يمثله حفا، فقد شاعت في شعره الحرية والصراحة.

وسنعرض للأحوص بالتفصيل في غير هذا الموضع. ومهما يكن فإن كثيراً من غزل المدينة لهذا العصر كان غزلاً صريحاً.

(٤) خصائص موسيقية

تحدثنا عن خصائص الأغاني في المدينة من حيث الموضوعات والمعاني التي كانت تعالجها، ولكن لم نتحدث عن موسيقاها، ولعل الحديث في هذا الجانب أوفر شعباً، وأكثر فروعاً، فهذه الأغاني كانت مقطوعات تُغنَّى، أو قل- كما كانوا يقولون- كانت أصواتاً تغنَّى. ومعنى ذلك أن المغنين والمغنيات كانوا يقطعونها ويمددونها أو يمططونها ويضربون عليها بآلاتهم الموسيقية، وقد تضرب عليها جوقة، وقد يرقصون عليها كما قدمنا في حديثنا عن دار جميلة، فقد كان غناء الشعر في هذه الدار يصحب بجوقة تضرب على الآلات الموسيقية في حين يغنى المغنون وقد لا يكتفون بذلك، فإذا هم يرقصون في أثناء هذا الضرب.

وليس هذا كله ما مر بنا في فصل الغناء السابق، فقد مر بنا أيضاً أن هؤلاء المغنين والمغنيات نقلوا إلى العربية أنغاماً وألحاناً أجنبية عن نشيط وغيره، وأنهم استطاعوا أن ينقلوا الغناء العربي من حال بسيطة ساذجة إلى غناء متقن، أو قل إلى فن له مصطلحاته وتقاليده، فإذا بنا نسمع عن ثقيل أول، وثقيل ثان، وخفيف ثقيل، ورمل، وخفيف رمل، وهزج، وإذا بنا نسمع عن أصابع، فهذا ثقيل بالبنصر أو بالخنصر في مجرى البنصر، ونحو ذلك مما عرضنا له في غير هذا الموضع.

وإنما نذكر ذلك الآن لنتساءل هل أحدث هذا الفن الجديد من الغناء عند العرب تجديداً أو تغييراً في موسيقي الأغاني في أثناء هذا العصر الأموي. وأكبر الظن، بل أكبر ا ليقين، أن تجديداً أو تغييراً في هذه الموسيقى قد حدث، ويتضح ذلك لمن يقرن موسيقى هذه الأغاني التي

كانت تغنى في المدينة لهذا ا لعصر إلى موسيقى الشعر الجاهلي القديم، ونقصد طبعة موسيقى الأغاني التي كانت تؤلف حينئذ للمغنيين والمغنيات، لا ما كانوا يغنون فيه من الشعر كله، فبعض ما كانوا يغنون فيه كان يختار هم من الشعر القديم نفسه.

ولعل أول ما يدركه قارئ كتاب الأغاني في هذا الصدد أن موسيقي الأغاني الجديدة كانت أكثر صفاء من موسيقى الشعر القديم، وكانت لغتها أكثر قرباً من لغة الشعر القديم، فهي تُخْتار من اللغة المألوفة، وكان ذلك من أهم الأسباب في أن تصبح هذه الأغاني الجديدة شعر شعبياً.

ويأتي الوزن بعد اللغة، وهو الآخر طرأ عليه كثير من التعديل إذ كان المغنون والمغنيات يضطرون مع ألحانهم أن يطيلوا ويمددوا في بعض حروف من تفعيلات البيت وأن يقصروا أو يسهموا في حروف أخرى من هذه التفعيلات. وذلك يجعلنا نؤمن بأن موسيقى الشعر القديم نفسها تطورت تحت تأثير هذا المد والهمس فطالت المسافات الزمنية في بعض الحروف وقصرت في أخرى. وأتاحت هذه الصورة من الغناء للشعراء المعاصرين، أو قل نبههم، أن يحدثوا زحافات وعِلَلاً كثيرة في شعرهم. ومن يدرس هذا الباب في عروض الخليل يعرف إلى أي حد يتغير البحر عن صورته حين تدخل فيه هذه الزحافات والعلل، فالرَّملُ مثلا ووزنه فاعلاتن ثلاث مرات، حين يلم به الزحاف في جزئه الأول ويصبح فاعلاتن يتغير عن صورته القديمة، ويصير سريعاً لسرعة حركاته، ومن المعروف أن الحركات القصيرة تجعل البحر سريعاً، بخلاف الطويلة فتجعله بطيئاً، وتلائم الأولى الموضوعات العنيفة التي تعبر عن عواطف ملتهبة، في حين تلائم الثانية الموضوعات الهادئة التي تعبر عن عواطف فاترة أو محزنة. وعلى هذا النحو كان الشعراء في المدينة في أثناء هذا العصر يحرفون في صورة الو زن القديم تحت تأثير الغناء المعاصر لهم، تحريفاً يضيق ويتسع في تفعيلات الشعر. ومن يرجع إلى عروض الخليل يدرك مدى هذا التحريف، فهو أكثر وأوسع من أن نلم به في هذا المكان.

وليس هذا كل ما أثر به المغنون والمغنيات في الأغاني وأوزانها، فقد أثروا فيها من طريق آخر، وذلك أنهم كانوا يقبلون على الأوزان الخفيفة، ويطلبونها، مما جعل أصحاب الأغاني في عصرهم يهجرون، إلى حد ما، الأوزان الطويلة من مثل الطويل والكامل ويقبلون على الأوزان السهلة من مثل الوافر والخفيف والرمل والمتقارب والهزج، ولم يكتفوا بذلك، فقد توسعوا في تلبية نداء المغنين والمغنيات، فإذا هم يجزئون لهم الأوزان الطويلة المعقدة، كما

يجزئون لهم الأوزان السهلة البسيطة، حتى يخففوا عليهم ما وسعهم التخفيف، وحتى يهيئوا لهم الفرصة لتطبيق ألحانهم وأنغامهم على ألفاظ الشعر كما يريدون. واستطاع المغنون حقاً أن ينفذوا من ذلك إلى كل ما كانوا يتمنونه ويحلمون به من الوصول ببعض أصواتهم إلى أروع صورة ممكنة لفنهم وغنائهم. ولعل القارئ يذكر ما مر بنا في فصل الغناء عند معبد وأنه كان يقول: " لقد صنعت ألحاناً لا يقدر شبعان ممتلئ ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها، ولقد صنعت ألحاناً لا يقدر المتكئ أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزاً، ولا القاعد حتى يقوم " وذكر أبو الفرج لحناً من هذه الألحان التي لا يستطيع أن يغنيها متكئ حتى يجثو ولاقاعد حتى يقوم وهو:

ولقد قلتُ والضمير ... كثير البلابلِ

ليت شعري تمنّياً ... والمنى غير طائلِ

هل رسولٌ مبلّغٌ ... فيؤدي رسائلي

وكان لحن معبد فيه خفيف ثقيل بالسبابة في مجرى الوسطى[١]. وواضح أن هذا اللحن الذي توافرت فيه كل هذه القيم الموسيقية في الغناء والذي كان يقيم الناس ويقعدهم، وزنه مجزأ أومعدل، فهو من مجزوء الخفيف. ومن يقرأ كتاب الأغاني يخيل إليه أن أصحاب الأغاني لم يتركوا في هذا العصر وزناً قديماً معقداً أو بسيطاً إلا جزءوه، ابتغاء تحريف صورته بحيث تتعادل مع الغناء الحديث. ومر بنا في فصل الغناء أن يونس الكاتب اشتهر بغنائه في الزينبيات السبع، وهي سبع مقطوعات لابن رهيمة في زينب بنت عكرمة على ما قدمنا. ومن ينظر[٢] فيها يجد ثلاثاً من الأوزان غير المجزأة، وأربعاً من الأوزان المجزأة وهي قوله:

أقصدتْ زينب قلبي ... وسبتْ عقلي ولبى

وهو من مجزوء الرمل، وقوله:

إنما زينب همي ... بأبي تلك وأمي

---

[1] أغاني ١٢٧/٩.

[2] أغاني ٤٠٢/٤ وما بعدها.

وهو أيضاً من مجزوء الرمل، وقوله:

وجد الفؤاد بزينبا وجداً شديداً متعِباً

على شعره، وقد روى له ابن عبد ربه صوتين مما يغني فيه الحجازيون[٢].

ولعل في هذا كله ما يوضح كيف أن الغزل في المدينة لهذا العصر كان يمتاز بخصائص موسيقية كثيرة سواء في لغته أو أوزانه فقد دخلها تعديل كثير، تارة عن طريق الزحافات والعلل وتارة عن طريق اختيار الأوزان السهلة البسيطة، وتارة ثالثة عن طريق تجزئتها بحيث تصبح خفيفة على الفم والسمع، وبحيث يستطيع المغنون أن يحملوها من قيم الغناء وألحانه وأنغامه ما يريدون.

---

[2] ابن عبد ربه ٣/٢٣٣.

وهو من مجزوء الكامل، وقوله:

إنما زينب المنى وهي الهم والهوى

وهو من مجزؤ الخفيف، فكثرة زينبات ابن رهيمة من الأوزان المجزأة، وفى هذا ما يرمز إلى العصر كله، إذ كثر الشعر على الأوزان المجزأة، وكان الشعراء يصنعون ذلك إرضاء للمغنين والمغنيات فإن تركوه فإلى أوزان تشبه هذه الأوزان المجزأة كالهزج والمتقارب، وكان المغنون والمغنيات يطلبون ذلك بأنفسهم ويلحون في طلبه. روى صاحب الأغاني أن ابن عائشة المغنى تعرض لعروة ابن أذينة، وطلب منه قطعة من الهزج يغنى فيها، وما زال به حتى صنع له قوله:

سلَيمى أَزمعتْ بينَا فأين بوصلِها[١] أينا[٢]

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن بعض المغنين والمغنيات كان ينظم الشعر، ومعنى ذلك أن من المغنين والمغنيات أنفسهم من كان يقوم بإحداث الملاءمة بين الشعر وما يريد من نغم وتلحين. وربما كان أشهر من صنع الشعر منهم في هذا العصر سلاَّمة القس، وروى صاحب الأغاني من شعرها الذي غنت فيه قولها تندب يزيد بن عبد الملك مولاها، وهو من مجزوء الرمل:

قد لعمري بتُّ ليلى كأخي الداءِ الوجيعِ[٣]

وبجانب سلامة نجد أبا سعيد مولى فائد، وكان مغنياً وشاعراً[٤]. وما من ريب في أن أبا سعيد سلامة ومن لف لفهما من شعراء المغنين أحدثوا تغييراً في أوزان الشعر تحت تأثير ألحانهم وأنغامهم.

ونحن نلاحظ من طرف آخر أن الدورة تمت، فكما أن بعض المغنين والمغنيات تعلم الشعر كي ينظمه حسب ما يريد للحنه ونغمه، فكذلك تعلم بعض الشعراء الغناء ومصطلحاته، كي

---

(1) هكذا في ابن عبد ربه ٢٣٣/٣ ورواها أبو الفرج تقولها بمعنى تظنها-، والبين: الفراق.

(2) أغاني ٢/ ٢٣٧ وما بعدها.

(3) أغاني ٣٣٢/٨.

(4) المصدر نفسه ٣٣٠/٤.

يوفر لشعره ما يريد من نغم ولحن وخير من يمثل ذلك عروة بن أذينة أحد فقهاء المدينة ومحدثيها[1]، فقد كان يصوغ الألحان والأنغام.

[1] أغاني ١٦٢/٢١.

الفصل الرابع

اتساع موجة الغزل وأغانيه

(١) الغزل وأغانيه بين المدينة ومكة

رأينا المدينة تنهض بالغزل وأغانيه في هذا العصر نهضة واسعة، وهي نهضة كانت تشاركها فيها مكة، بل قل كانت تنافسها منافسة شديدة، وطبيعي أن تنافس مكة المدينة، فقد كان بها كثرة من الغزلين والمغنين. حقاً هي تأخرت عن المدينة قليلاً في النهوض بفن الغناء، ولكنها لم تلبث حين عرفته أن أسرفت فيه، فكان لها مغنون ممتازون مثل ابن مِسجح وهو أقدم مغنيها، واشتهر بنقله إلى العربية ألحانا وأنغاماً من الغناء الأجنبي: الفارسي والرومي[١]، وكذلك صنع تلميذه ابن محرز[٢].

وينبغي أن لا نفهم من ذلك أن مكة استقلت عن المدينة في غنائها، إذ كانت تستمد دائماً منها. وآية ذلك أن أشهر مغنيها بعد ابن مِسجح وابن محرز وهو ابن سريج، تتلمذ على طُويس في المدينة[٣]، وهو أول من ضرب في مكة باالعود الفارسي على الغناء العربي[٤]، وكان يغنى في الثقيل والخفيف[٥]، فيستوفى النغم الطوال ويحسن النغم القصار. وليس ابن سر يح فقط هو الذي كان يأخذ عن أصحاب الغناء في المدينة فقد كان ابن مِسجح وابن محرز يذهبان إليها لأخذ بعض الأصوات من المغنين والمغنيات هناك[٦].

---

[1] أغاني ٣/٢٧٦.

[2] المصدر نفسه ١/٣٧٨.

[3] ابن عبد ربه ٣/٢٤٢.

[4] أغاني ١/٢٥٠.

[5] أغاني طبع دار الكتب ١/٢٧٦.

[6] المصدر نفسه ٨/١٨٨.

على كل حال كانت مكة تتأثر المدينة في غنائها، واشتهر فيها بجانب من قدمنا الغريض تلميذ ابن سريج، وكان غناؤه أشجى من غناء أستاذه، وهو مولى الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر المذكورة في شعر عمر بن أبى ربيعة، وكان من مواليها أيضاً يحيى قيل وسمية[١] وبجانب هؤلاء نجد مغنين آخرين مشهورين، ترجم لهم صاحب الأغاني من مثل الهذلي[٢] وعبادل[٣] وابن عباد[٤] ويحيى المكي[٥] وإسماعيل بن الهِربذ[٦] وعمر الوادي[٧]. وكما اكتظت مكة بالمغنين اكتظت بالمغنيات[٨]، وإن كانت لم تستطع أن تظفر بمثل جميلة وسلامة، وغيرهما من مغنيات المدينة الممتازات.

ومكة إن لم تستطع أن تتفوق على المدينة تماماً في فن الغناء فإنها نافستها فيه، كما نافستها في الغزل، فقد كان لها فيه شعراء كثيرون، وأهم شعرائها عمر بن أبى ربيعة، وعبيد الله بن قيس الرقيات والحارث بن خالد المخزومي، والعرجِي. وعمر هو أكبر شاعر غَزِلٍ أنتجته حركة الغناء في مكة لهذا العصر، وساعدته ظروف مختلفة على أن ينبغ في هذا الفن ويشتهر فيه، فقد كان ثريا ثراء واسعاً، فكان ابن سريج والغريض يعيشان في كنفه ويغنيان في أشعاره، وكان له جاريتان في بيته يغنيانه في شعره يقال لإحداهما بغوم وللأخرى أسماء[٩]. ولم يساعده ثراؤه على اتخاذ المغنين والمغنيات وعنايتهم بغناء شعره فقط، بل ساعده على شيء آخر مهم وهو أن يقصر نفسه على الغزل وبذلك لم يتكلف مديحاً ولا فنا آخر من فنون الشعر التقليدي. روى صاحب الأغاني أن سليمان بن عبد الملك قال له: " ما يمنعك من مدحنا، فقال إني لا أمدح الرجال، إنما أمدح النساء[١٠]".

---

(1) انظر ترجمة الغريض في الأغاني ٣٥٩/٢.

(2) الأغاني ٦٥/٥.

(3) المصدر نفسه ٩٦/٦.

(4) المصدر نفسه ١٧١/٦.

(5) المصدر نفسه ١٧٣/٦.

(6) المصدر نفسه ١٠٤/٧.

(7) المصدر نفسه ٨٥/٧.

(8) المصدر نفسه ٣١٣/١ وكذلك ٢١٠/٨

(9) أغاني ١/ ١٦٥.

(10) المصدر نفسه ٧٤/١.

تخصص عمر في فن الغزل وهو أهم موضوعات الأغاني في عصره، وشعره في هذا الجانب يعتبر طرفاً خالصة في جمال موسيقاه وفى صراحته. ويخيل إلى الإنسان أن عمر لم يكد يترك فتاة جميلة في مكة والمدينة إلا شبب بها وذكرها ونوه باسمها، فهو يشبب بزينب بنت موسى الجمحية[11]– ولعلها هي نفسها نُعم[12]– وبالثريا بنت على ابن عبد الله و يقول صاحب الأغاني إنه كان مشغوفاً بها وكانت عرضة ذلك جمالاً وتماماً[13]. ولم يكتف عمر بذلك فقد كان يتعرض للنساء الحواج في الطواف وغيره من مشاعر الحج. ويشبب بهن[14]. ومن أشهر من شَبب بهن ليلى بنت الحارث البكرية[٥]، ورملة[٦] بنت عبد الله بن خلف الخزاعية، وفاطمة بنت محمد ابن الأشعث الكندية[٧] زوجة[٨] شيخ النحو أبى الأسود الدؤلى. وهكذا لا يكاد يترك سيدة أو فتاة تشتهر بميسم جمال وتقصد إلى مكة حتى يتعرض لها وينظم فيها غزله.

ولم يكن عمر يتعرض للسيدات والفتيات في مناسك الحج فقط بل كان يخرج لاستقبالهن في طرقهن إلى مكة. روى صاحب الأغاني أنه خرج مع ابن سريج على نجيبين رحالتاهما ملبستان بالديباج. وقد خضبا النجيبين، ولبسا حليتين، فجعلا يتلقَّيان الحاج ويتعرضان للنساء إلى أن أظلم الليل[٩]. وروى صاحب الأغاني أيضاً أنه كان يعتمر في ذي القعدة، ويحل، ويلبس تلك الحلَلَ والوشْي، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبِل لِمتَه، ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات، ويتلقى المدنيات إلى مر، ويتلقى الشاميات إلى الكَديد[١٠]. وكل حوادث عمر مع هؤلاء الحواج وكل وقائعه مع غيرهن من

---

[11] أغاني ٩١/١ وما بعدها.

[12] أغاني ٢١٣/٤

[13] أغاني ٢١٢/١.

[14] الشعر والشعراء ص ٣٤٩.

[5] أغاني ١٥٧/١.

[6] المصدر نفسه ٢١٤/١ وما بعدها.

[7] المصدر نفسه ٨٤/١.

[8] المصدر نفسه ١٤٧/١.

[9] المصدر نفسه ٢٥٨/١.

[10] المصدر نفسه ٢٢١/١.

فتيات مكة ونسائها، كل ذلك مصور في شعره أجمل تصوير، وهو ينساق كله في التشبيب والغزل.

وكان يعاصر عمر عبيد الله بن قيس الرقَيات، وهو " أشد قريش أسرشعر في الإسلام[١١]". وإنما لُقّب الرقيات لأنه شَبب بثلاث نسوة، سمين جميعاً رقَية[١٢]. وكان زبيري الهوى، وله في آل الزبير مدائح كثيرة. وقد مدح من بعدهم عبد الملك بن مروان. ومعنى ذلك أنه لم يقصر نفسه مثل ابن أبى ربيعة على الغزل، يقول ابن سلام: " كان غزلاً، وأغزل من شعره شعر عمر بن أبى ربيعة، وكان عمر يصرح بالغزل.. وكان عبيد الله يشبب ولا يصرح، ولم يكن له معقود شعر وغزل كغزل عمر، وكان انقطاعه إلى آل الزبير[١]".

ويأتي بعد ابن قيس الحارث بن خالد المخزومي، وهو أحد شعراء قريش الغزلين في العصر، " وكان يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة، لا يتجاوز ا الغزل إلى مديح ولا هجاء، وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب بها "[٢]، حين تلم بمكة في حجها. وكان على طريقة عمر يشبب بالحواج[٣]، وقد ولاه عبد الملك مكة فحج بالناس وحجت عائشة، فأرسلت إليه: " أَخِّرِ الصلاة حتى أفرغ من طوافي فأخَّرها " وأنكر أهل الموسم ذلك منه، وعلم عبد الملك فعزله،[٤]. وغزل الحارث غزل طريف، لكنه لا يلحق غزل عمر في صراحته ولا في تأثمه وكثرة وقائعه.

وربما كان العرجِي أشبه الشعراء المكيين بعمر، وهو من أبناء عثمان بن عفان، فهو من بيت ثروة ويسار وسمى العرجِي لأنه كان ينزل عرج الطائف، وقيل بل لمال كان لهه في العرج[٥]. ونحا نحو عمر في الغزل وتشبه به فأجاد، وكان يعيش مثله معيشة لاهية، وساعده على ذلك ثراء ضخم، فقد روى الرواة أن مجاعة حدثت فأمر بإطعام الناس وإعطائهم، وبلغ ما أخرجه حينئذ عشرين ألف دينار، كما روى أنه كان يلبس الحلتين قيمتهما خمسمائة دينار.

---

(11) ابن سلام ص ١٣٧.

(12) أغاني ٥/٧٣.

(1) ابن سلام ص١٣٧

(2) أغاني ٣/٣١٢

(3) المصدر نفسه ٣/٣٢٩.

(4) أغاني طبع دار الكتب ٣/٣١٧.

(5) أغاني ١/٣٨٥.

وكان من سؤ حظ ا العرجِي أن هجا محمد بن هشام هجاء مقذعاً، وكان محمد خال هشام بن عبد الملك. فلما ولي الخلافة ولاه مكة، فما زال يطلب سبيلاً إلى العرجِي حتى وجده[٦]، فأخذه وقيده وضربه، وأقامه للناس ثم حبسه، ومكث في حبسه نحواً من تسع سنين حتى مات [٧]. وفي حبسه يقول[٨]:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسِداد ثَغْرِ

وهؤلاء هم أهم شعراء مكة في العصر، وكلهم من قريش وكان وراءهم شعراء كثيرون مثل كثير بن كثير،[١] السهمي، والفضل بن العباس اللهبي[٢] ثم أبى العباس الأعمى[٣]، وكان من الموالي

على كل حال أحدث الغناء في مكة، كما أحدث في المدينة، نشاطاً واسعاً في الغزل، فقد كثر أصحابه وكثر ما يقدمون من أصوات أو كما نقول الآن من أدوار، يغنى فيها المغنون والمغنيات في مكة. وينبغي أن نلاحظ هنا شيئاً مهما وهو أن هذه الأصوات أو الأدوار لم تكن تقدم إلى أصحاب الغناء في مكة فقط، بل كانت تقدم أيضاً إلى أصحاب الغناء في المدينة، وكان عمر نفسه يذهب بشعره إلى المدينة ويقدمه إلى المغنين ليغنوه فيه، وكان يعطيهم فيكثر في عطيته من أجل ذلك[٤] وكما كان يقصد المغنين بشعره كان يقصد دور المغنيات، وخاصة دار جميلة[٥]، وكان العرجِي يصنع صنيعه[٦]. ومن يرجع إلى ترجمة ابن قيس الرقيات في الأغاني يجد أكثر من غنى في شعره كانوا مدنيين، وعلى رأسهم مالك ابن أبى السمح الطائي، ولذلك ترجم له أبو الفرج بعده مباشرة. وغير ابن قيس مثل عمر والعرجِي كانوا شركة بين المغنين في مكة والمدينة.

---

(6) المصدر نفسه ٤١٠/١

(7) المصدر نفسه ٤٠٩/١

(8) أغاني ٤١٣/١.

(1) انظر أغاني ٢٤٦/١ وكذلك ٣١٩/١ وأيضا ١٧٧/٩.

(2) أغاني طبع بولاق ٢/١٥.

(3) المصدر نفسه ٥٩/١٥.

(4) أغاني طبع دار الكتب ٢٩٢/٤

(5) المصدر نفسه ٢٠٦/٨.

(6) المصدر نفسه ٢٣٠/٨ وما بعدها

ويحسن أن نلاحظ هنا أيضاً ملاحظة ثانية بجانب الملاحظة السابقة، وهي أن شعر عمر وغيره من شعراء الغزل في مكة كان في فتيات بلدتهم ونسائها من الأحرار وإن تركوهن فإلى الحواج من شريفات العرب ونبيلاتهن، وقلما تغزلوا في أمة من الإماء. ومهما يكن فإن مكة شاركت المدينة في الغزل الأغاني لهذا العصر، وقد افتن فيهما أصحابهما على صور مختلفة.

(٢) شغف أهل المدينة بالغزل وأغانيه

قدمنا في الفصل الثاني من هذا البحث مدى تعلق أهل المدينة بالغناء ومدى تقديرهم له وإعجابهم به، وكان الغناء يقترن بالغزل الذي يغَنَّى فيه، فكان طبيعياً أن ينسحب إعجاب أهل المدينة بالغناء على الغزل الذي يصحبه. ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد في المدينة إلا وهو يروى هذا الغزل ويرفع صوته به إن كان له صوت ممتاز، ومن يرجع إلى كتاب الأغاني لأبى الفرج يرى هذا الغزل يروى في كل مكان بالمدينة، حتى في المسجد، وعلى لسان أشهر الفقهاء في العصر، وأكثرهم تحرجاً، فقد روى صاحب الأغاني أن سعيد بن المسيب كان ينشد الغزل في مسجد رسول الله، وقال أبو الفرج: إنه كان كثير الإنشاد والاستنشاد للشعر[١]. وإذا كان ابن المسيب يروى الشعر في المسجد فقد كان أهل المدينة شبابهم وكهولهم ينشدونه في الطرقات، وفى ضواحي المدينة، يدفعهم في ذلك إعجاب شديد بهذا الشعر، بل قل شغف شديد. روى أبو الفرج أن إنساناً أنشد عند إبراهيم بن هشام، وهو والى المدينة قول الأحوص:

إذ أنتِ فينا لمن ينهاك عاصية وإذ أجر إليكم سادراً رسنِي

فوثب أبو عبيدة بن عمار بن ياسر قائما، ثم أرخى رداءه، ومضى يمشى على تلك الحال، ويجره، حتى بلغ العرض[٢]، ثم رجع فقال له إبراهيم بن هشام حين جلس ما شأنك، فقال: أيها الأمير إني سمعت هذا البيت مرة فأعجبني فحلفت لا أسمعه إلا جررتُ رسنِي[٣]. ولعل خير من يمثل شغف أهل المدينة بالغزل أبو السائب المخزومي، وكان من عبادها، وكان يصلّى

---

[1] أغاني ٥/٩٣.

[2] واد من وديان المدينة فيه زروع ونخيل.

[3] أغاني٤/٢٦١.

في كل يوم وليلة ألف ركعة[٤]، ومع ذلك كان إذا استمع إلى مقطوعات الغزل طرب طرباً شديداً. روى أبو الفرج أنه سمع رجلا ينشد قول أبى دهبل الجمحي:

أليس عجيباً أن تكون ببلدة كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلم

فقال له أبو السائب: قِفْ يا حبيبي، فوقف، فصاح بجارية: يا سلامة اخرجي، فخرجت، فقال له: أعد، بأبي أنت، البيت، فأعاده، فقال: بلى والله إنه لعجيب عظيم، وإلا فسلامة حرة لوجه الله، اذهب فديتك مصاحباً[١]. وروى أبو الفرج أن رجلاً كان يثقل عليه أنشد أمامه غزلاً فأقبل عليه يقول: " بأبي أنت! كنت والله لا أحبك وتثقل على، فأنا الآن أحبك وتخف[٢] على " وأنشده يوماً إسماعيل بن أبى أويس لقيس:

تعلّق روحي روحها قبل خَلْقِنا ومن بعدما كنَّا نِطافاً وفى المهدِ
فزاد كما زِدنا وأصبح نامياً وليس إذا متْنا بمنتقِضِ العهدِ
ولكنَّه باق على كل حادث وزائرنا في ظلمة القبر واللّحدِ

فحلف لا يزال يقوم ويقعد حتى يحفظها ويرويها[٣]. وروى ابن عبد ربه أنه خرج يوماً هو وابن أبى عتيق يتنزهان، فمال أبو السائب لبعض حاجته وعليه طويلته فانصرف دونها، فقال له ابن أبى عتيق: ما فعلت طويلتك؟ قال: ذكرت قول كثير:

أرى الإزار على لُبنَى فأحسده إن الإزار على ما ضم محسود

فتصدقتُ بها على الشيطان الذي أجرى هذا البيت على لسانه، فأخذ ابن أبى عتيق طويلته، فرمى بها وقال له: أتسبقني أنت إلى بِر الشيطان[٤]. وروى ابن أبى الزناد قال: " كنت ليلة عند الحسن بن زيد ببطحاء[٥] ابن أزهر نصفَ الليل جلوساً في القمر، وأبو السائب المخزومي معنا، وكان ذا فضل، وكان مشغوفاً بالسماع والتغزل، وبين أيدينا طبق عليه فريك، فنحن نصيب منه، فأنشد الحسن قول داود بن سلم:

---

[4] أغاني ٢٧٧/١.

[1] أغاني١٢٠/٧.

[2] أغاني طبع دار الكتب ١٤٣/٧.

[3] المصدر نفسه ١٩٦/٩.

[4] ابن عبد ربه ٢٣٩/٣.

[5] موضع على ستة أميال من المدينة.

ومن يطِعِ الهوى يعرفْ هواه وقد ينْبيك بالأمر الخبير

وجعل يمد به صوته ويطربه، فأخذ أبو السائب الطبق، فرمى به إلى السماء فوقع الفريك على رأس الحسن بن زيد فقال له.: مالك ويحك أجننْتَ؟ فقال له أبو السائب: أسألك بالله وبقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما أعدت إنشاد هذا الصوت ومددته كما فعلت! فما ملك الحسن نفسه ضحكاً[١] وروى أبو الفرج أنه مضى مع بعض أصحابه إلى العقيق فتناشدا وتحدثا ولم يلبث صاحبه أن أنشده للعرجي:

باتا بأنعم ليلة حتى بدا صبح تلوح كالأغر الأَشْقَرِ

فتلازما عند الفِراق صبابةً أخْذَ الغَرِيم بفضلِ ثوبِ المعسرِ

فقال لصاحبه: أعده علي، فأعاده، فقال: أحسن والله! امرأتي طالق إن نطقتُ بحرف غيره حتى أرجع إلى بيتي، ومضى مع صاحبه فلقيهما عبد الله ابن حسن بن حسن فسلَّم، ثم قال: كيف يا أبا السائب، فقال له:

فتلازما عند الفراق صبابةً أخذَ الغريم بِفَضلِ ثوبِ المعسرِ

فالتفت عبد الله إلى صاحبه، وقال له: متى أنكرت صاحبك؟فقال منذ الليلة، فقال إن الله! وأي كهل أصيبت منه قريش! ثم مضى هو وصاحبه فلقيهما محمد بن عمران التيمي قاضي المدينة... فسلم ثم قال كيف أنت يا أبا السائب؟ فقال:

فتلازما عند الفراق صبابةً أخْذَ الغريم بِفَضلِ ثوبِ المعسرِ

فالتفت محمد بن عمران إلى صاحبه، فقال له: متى أنكرت صاحبك؟ قال: آنفاً، فلما أراد المضي قال له صاحب أبى السائب: أفتدعه هكذا؟ والله ما آمن أن يتهور في بعض آبار العقيق، قال: صدقت، يا غلام قيد البغلة فأخذ القيد، ووضعه في رجله، وهو ينشد البيت ويشير بيده إليه، يرى أنه يفهم عنه قصته، ثم نزل الشيخ وقال: يا غلام احمله على بغلتي، وألحقه بأهله[٢].

ويقول أبو الفرج: "كان أبو السائب رجلاً صالحاً زاهداً متقللاً يصوم الدهر، وكان أرق خلق الله وأشدهم غزلاً، توجه ابنه يوماً يأتيه بما يفطر عليه فأبطأ الغلام إلى العتمة، فلما جاء،

---

[1] أغاني ١٦/٦.

[2] أغاني ٣٩٧/١.

قال له: يا عدو نفسه، ما أخرك إلى هذا الوقت؟ قال: جزت باب بنى فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته، فقال: هات يا بنى،، فوالله لئن كنت أحسنت لأحبونَّك ولئن كنت أسأت لأضربنك، فاند فع يغنى بشعر كثير:

ولما علْوا شَغْباً[١] تبينْتُ أنه تقطَّع من أهل الحجاز علائقي

فلا زِلن حسرى ظُلَّعاً لِم حملْنها إلى بلد ناء قليل الأصادقِ

فلم يزل يغنيه إلى نصف الليل، فقالت له زوجته: يا هذا قد انتصف الليل وما أفطرنا، فقال لها: أنت طالق إن كان فطورنا غيره، فلم يزل يغنيه إلى السحر، فلما كان السحر، قالت له زوجته: هذا السحر وما أفطرنا، فقال: أنت طالق إن كان سحورنا غيره، فلما أصبح قال لابنه: خذ جبتي هذه وأعطني خَلَقك ليكون الحباء فضل ما بينهما، فقال له: يا أبت! أنت شيخ وأنا شاب، وأنا أقوى على البرد منك، قال: يا بنى ما ترك صوتك هذا للبرد على سبيلاً ما حييت"[٢].

وإذا كان أبو السائب على صلاحه وزهده وصومه الدهر يطرب للشعر هذا الطرب، فغيره ممن لم تكن حياتهم تقوم على الزهد والمبالغة في الصوم والصلاة كان يطرب طرباً، لعله أشد من طربه، حير يستمع إلى ما كان يحدثه الأحوص وغيره من شعراء المدينة ومكة، وما كان يحدثه كثير وغيره من شعراء ا البادية، ويغنى فيه المغنون.

وكما كان شباب المدينة وشيوخها يعجبون بهذه الأغاني كان نساء المدينة أيضاً يعجبن بها إعجاباً واسعاً، وبلغ من إعجابهن بها أنهن كن يروينها، وكانت السيدة سكينة بنت الحسين من أهم النساء اللائى تعلقن بها وبروايتها، وكان يفد عليها في دارها المسماة بالبريدي بالعقيق كبار الشعراء المعاصرين لها، فينشدونها ومن معها من نساء المدينة غزلهما[٣]، وكانت تجيزهم، وتعلق عليهم بنقد يدل على ارتفاع ذوق المرأة في المدينة لهذا العصر[١]. وكانت عائشة بنت طلحة مثل سكينة تعجب بهذه الأغاني[٢]التي شغلت عصرها وأهل بلدتها.

---

[1] شغب: منهل بين طريق مصر والشام.

[2] أغاني ٧/٢٩٠.

[3] انظر الأغاني ١/١٥٠ و٢/٣٧٦ وانظر (طبعة بولاق) ١٤/١٧٣ بعدها.

[1] أغاني ١٤/١٧٤ ما بعدها.

[2] انظر الأغاني ٣/٣٢٠ وما بعدها.

وكانت المرأة الشريفة في المدينة لا تجد حرجاً في أن تُذْكَر في الشعر، وأن يتغنى الشعراء بها، لأن في، هذا اعترافاً بجمالها، كما قيل الغواني يغرهن الثناء، وأي ثناء أوقع في روع المرأة من الثناء على جمالها وحسنها البارع. وكأن المرأة في المدينة كانت ترى في ذكر الشعراء لها ما يعبر عن هذا الثناء، وعما تحظى به من جمال، ولم تكن ترفض ذلك إلا أن يخرج الشاعر عن وقاره إلى نوع من الحرية والإباحية[٣].

ولعل في هذا ما يفسر رضا فضليات النساء في المدينة لهذا العصر عن الشعراء حين يذكرون أسماءهن في غزلهم، وكأنما كان هذا الغزل حينئذ يشبه صحافتنا الحديثة، فكما أنك قلما تجد الآن سيدة ترفض أن تظهر صورتها في صحيفة يومية أو أسبوعية، فكذلك كان هذا الغزل في العصر الأموي صحافة العصر، فهو الذي يسجل أخبار النساء الحواج، وهو الذي تظهر في مرآته صورهن العديدة وما من ريب في أن ذلك هو الذي جعل المرأة العربية الشريفة تطلبه، حتى نساء الخلفاء وشريفات بيت بنى أمية كن يطلبنه، فقد روى صاحب الأغاني أن أم محمد بنت مروان بن الحكم حجت فأرسلت إلى عمر بن أبى ربيعة ألف دينار كي يذكرها في شعره[٤]، وروى أيضاً أن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك حجت فطلبت إلى الشعراء الغزلين أن ينظموا فيها شعراً، فبعضهم تشجع ونظم فيها، وبعضهم جبن فاكتفى بالنظم في بعض جواريها[٥].

وأشاع إعجاب نساء المدينة وفتياتها بهذا الشعر رقة شعور عامة، كما أشاع ظرفاً ودماثة، ولعل مما يصور ذلك أدق تصوير ما رواه صاحب الأغاني من أن تاجراً من أهل الكوفة قدم المدينة نخمر فباعها كلها، وبقيت السود منها، فلم تنفق، وكان صديقاً للدارمي أحد[٦] شعراء مكة ومغنيها، فشكا ذلك إليه وكان قد نسك، وترك الغناء وقول الشعر، فقال له لاتهتم بذلك فإفى سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع، ثم قال:

قل للمليحة في الخمار الأسودِ ... ماذا صنعتِ براهبٍ متعبدِ

قد كان شَمر للصلاة ثيابه ... حتى وقفتِ له بباب المسجدِ

---

[3] أغاني ٦/٢٥٤ ما بعدها.

[4] أغاني (طبع دار الكتب) ١/١٦٦.

[5] أغاني (طبع بولاق) ١١/٤٩.

[6] أغاني ٣/٤٥.

وغَنَّى فيه أيضاً سنان الكاتب، وشاع في الناس، وقالوا قد فتك الدارمي ورجع عن نسكه، فلم تبق في المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود حتى نفد ما كان مع العراقي منها[١]. وليس من شك في أن هذا حادث بالغ الدلالة على مدى ما كان للأغاني في هذا العصر من تأثير في أهل المدينة. والحق أنهم كانوا يشْغَفُون بها شغفاً شديداً، وكان شغفهم بها يزداد حين تُغَنَّى في دور النبلاء والأشراف ودور المغنين والمغنيات، ومن أجل ذلك لم يكن غريباً أن يعجب بها الزهاد والنساك، وأن يطلبها الرجال والنساء، وأن يغرقوا في إعجابهم وطلبهم.

(٣) بعض الفقهاء ينظمون في الغزل العفيف

رأينا الناس في المدينة يشْغَفون بالغزل ويعجبون به إعجاباً شديداً، وعلى رأسهم الناسك المشهور أبو السائب المخزومي. وكان من مظاهر هذا الإعجاب وذلك الشغف أن كَثُر من ينظمون الغزل في المدينة كثرة مفرطة، كما قدمنا في غير هذا الموضع، وحتى بعض فقهاء المدينة أخذوا يشتركون في هذا النظم، فكان منهم شاعران في هذا العصر، هما عروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة.

أما عروة فقد كان معدوداً في الفقهاء والمحدثين، روى عنه مالك بن أنس وعبيد الله بن عمر العدوى[٢]. وقد تحدثنا عنه في غير موضع، وقلنا إنه كان يغنى شعره، وله فيه أصوات معروفة، وهو شعر كله ينساق في الغزل العفيف، فهو شاعر من شعراء المدينة وهو شاعر يغنى شعره ويوقعه، ويحدث فيه ما يريد من تقطيعات وتمديدات، وكان لهذا كله أثر في غزله، فهو غزل يكتظ بالموسيقى، وتتوافر له منها قيم صوتية كثيرة. واستمع إلى هذه القطعة:

إن التي زعمتْ فؤادك ملَّها ... جعلَتْ هواك كما جعلْتَ هوى لها

فبِك الذي زعمتْ بها وكلاكما ... يبدى لصاحبه الصبابةَ كلَّها

ويبيتُ بين جوانحي حبٌّ لها ... لو كان تحت فراشها لأقلَّها[١]

ولعمرها لو كان حبك فوقها ... يوماً وقد ضحِيتْ إذن لأظلَّها

---

[1] أغاني ٣/ ٤٦.

[2] أغاني ٢١/١٦٢.

[1] أقلها: حملها.

وإذا وجدتَ لها وساوس سلوة ... شَفَع الفؤاد إلى الضمير فسلَّها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بلباقة فأدقَّها وأجلَّها

لما عرضتُ مسلِّماً لي حاجة ... أرجو معونتها وأخشى دلَّها

منعتْ تحيتها فقلت لصاحبي ... ما كان أكثرها لنا وأقلّها

فدنَا فقال لعلها معذورةُ ... من أجل رِقْبتها فقلت لعلَّها

كان غزل عروة يزخر بالموسيقي على هذا ا لنحو، فهو غزل مهيأ للغناء، يغنى فيه صاحبه، ويغنِّى فيه غيره. وليس هذا كل ما يميز غزل عروة، بل هناك ميزة تتصل بمعانيه، وقد تحدثنا عنها في غير هذا الموضع وقلنا إن الأغاني كانت تنصب على الغزل غالباً، وإن الغزل في المدينة كان على ضربين: غزل صريح فيه حرية، وغزل عفيف فيه طهر، وفيه مثالية. وما من ريب في أن غزل عروة كان من الضرب الثاني، وتعليل ذلك واضح، فهو فقيه، وله من تدينه رادع يقيه أن يكون آثماً في حبه، أو صريحاً صراحة تؤدى بغزله، إلى أن يكون ماديا مكشوفاً.

وكان يذهب هذا المذهب نفسه في الغزل العفيف عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وعداده في قريش مثل ابن أذنية، وجده عتبة أخو عبد الله بن مسعود له صحبة بالنبي صلي الله عليه وسلم، وليس من البدريين، وأبوه عبد الله كان رجلاً صالحا استعمله عمر بن الخطاب فأحمده[٢]. وعبيد الله أحد وجوه الفقهاء الذين روى عنهم الفقه والحديث، وهو أحد السبعة الفقهاء المقدمين من أهل المدينة، وهم القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، وعروة بن الزبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام، وسعيد بن المسيب، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسليمان بن يسار.

وكان عبيد الله ضريراً، وقد روى عن جماعة من وجوه الصحابة مثل ابن عباس وعمه عبد الله بن مسعود وأبى هريرة، وروى عنه الزهري وابن أبى الزناد وغيرهما من نظرائهما. وكان عبد الله بن عباس يقدمه ويؤثره[١]، ويقول الزهري: "أدركت أربعة بحور، عبيد الله بن عبد الله أحدهم ". ويقول أيضاً: سمعت من العلم شيئاً كثيراً، فلما لقيت عبيد الله بن عبد الله

---

[2] أغاني (طبع دار الكتب) ١٣٩/٩.

[1] أغاني طبع دار الكتب ١٤٠/٩.

كأني كنت في شعب من الشعاب فوقعت في الوادي، وقال مرة: " صرت كأني لم أسمع من العلم شيئاً)، وقد أثنى عليه عمر بن عبد العزيز وهو خليفة، فقال: "لو كان عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة حيا ما صدرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لي بيوم من عبيد الله غرماً[٢].

كان عبيد الله بن عبد الله فقيهاً ممتازاً في عصره، ويكفى أنه كان أحد فقهاء المدينة السبعة الذين حمل عنهم الدين والعلم، وكان إلى ذلك موضع إجلال من الخلفاء والأمراء. ومن يرجع إلى ترجمته في الأغاني يجده رقيقاً، شديد الحساسية جدا، فقد روى هشام بن عروة أنه استأذن على عمر بن عبد العزيز وهو وال على المدينة فرده الحاجب وقال له: عنده عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وهو مختل به، فانصرف غضبان وأرسل إلى عمر:

أبِن لي فكُن مثلى أو ابتَغِ صاحباً ... كمثلك إني تابع صاحباً مثلى

عزيز إخائي لا ينال مودتي ... من الناس إلا مسلم كاملُ العقلِ

وما يلبث الفتيان أن يتفرقوا ... إذا لم يؤلَّف روح شكلٍ إلى شَكْلِ

فبعث عمر إليه من يعذره عنده ويقول: إن عمر يقسم بالله ما علم بإتيانك ولا برد الحاجب إياك. فعذره[١]. ويقال إن أبا بكر بن حزم مر عليه وهو وال على المدينة فلم يسلم عليه، فتلومه[٢].

كان عبيد الله رقيقاً مرهف الإحساس، وهيأه ذلك لأن يصبح من شعراء عصره الغزلين. وقصة غزله قصة طريفة، فقد روى الرواة أنه تزوج امرأة تسمي عثْمة، فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها ثم ندم على طلاقها إذ كان يحبها حبا شديداً، ولكن ماذا يصنع، لقد قضى الأمر وخرجت من يده، ويظهر أنه لم يستطع إرجاعها، فتولي بها وهام، وأسف أسفاً شديداً على ما فاته منها، وتكلف في ذلك ألواناً من الخطوب وتعرض لضروب من الألم.

والرواة يمرون بهذا الحادث في حياة عبيد الله مرا سريعاً، فلا يذكرون لنا شيئاً بعد ذلك، لا يذكرون لنا كيف كانت علاقة عبيد الله بزوجة في أثناء زواجهما، ولا كيف تم هذا الزواج، حتى ما رووا من أشعار عبيد الله رووه عارياً من حوادثه وأخباره، فأصبحنا لا نستطيع أن

---

[2] المصدر نفسه ١٤١/٩.

[1] أغاني ١٤٣/٩.

[2] المصدر نفسه ١٤٤/٩

نفصل في غزله، فنرجع بعضاً منه إلى ما قبل زواج عثمة وبعضاً إلى أيام زواجهما، وبعضاً ثالثاً إلى أيام فراقهما.

مهما يكن فإن عبيد الله كان شاعراً بارعاً أقيمت حواجز بينه وبين من أحبها، فتولع بها وأغْرِم غراماً شديداً، حاول، فيما يظهر، السلْوى فلم يجد إلى ذلك سبيلاً، ماذا يصنع؟ لم يجد إلا الغزل ينفس به عما في نفسه، واستمع ليه يقول[٣]:

كتمتَ الهوى حتى أضر بك الكَتْم ... ولامك أقوام ولومهم ظُلْم

فيا من لنفسٍ لا تموت فينقضي ... عناها ولا تحيا حياةً لها طَعم

أأترك إتيان الحبيب تأثُماً ... ألا إن هجران الحبيب هو الإثْم

فذقْ هجرها قد كنت تزعم أنه ... رشاد ألا يا ربما كذب الزعم

كتم عبيد الله الهوى، ولم ينفعه كتمانه، فقد أضر به ضرراً بليغاً فأعلن حبه، فلامه الناس، حينئذ تمنى الموت حتى يخلص من تلك الحياة التي لم يكن يعرف لها لوناً، والتي أصبح لا يجد لها طعماً، وهو يعود إلى نفسه فيجده لا يزال حيا، وقد هجر صاحبته، بل هي التي هجرته، وهو يذوق الآن هجرها وما قدمت يداه من طلاقها، فحياته كلها أحزان وهموم أو كما يقول هو عن نفسه[١]:

أروح بهم ثم أغدو بمثله ... ويحسب أنى في الثياب صحيح

وأي صحة؟ إنها صحة تشبه المرض، بل قل إنها مرض خالص، فقد تركته صاحبته ولم تحاول أن ترجع إليه، وهو ينتظر أن تلم به فلا تلم، فيتحرق حسرة ولوعة، وسرعان ما تجيش نفسه بالشعر فيقول[٢]:

تغلغلَ حب عثْمةَ في فؤادي ... فباديه مع الخافي يسير

تغلغل حيث لم يبلغ شراب ... ولا حزن ولم يبلغ سرور

صدعتِ القلب ثم ذَررتِ فيه ... هواكِ فَلِيم فالتأم الفُطور[٣]

---

[3] أغاني ١٤٩/٩ وما بعدها وانظر ابن عبد ربه ١٢٦/٣.

[1] أغاني ١٣٨/٩.

[2] أغاني ١٥١/٩ سس.

[3] الفطور: الشقوق.

أكاد إذا ذكرتُ العهد منها أطير لو ان إنساناً يطير

غني النفس أن أزداد حبا ولكنى إلى صلة فقير

وعلى هذا النحو كان عبيد الله يتغزل بصاحبته هذا الغزل الرقيق الذي يعبر به عن لواعج حبه، وكان يسأل أتقول الشعر، في فضلك ونسكك؟ فيقول: إن المصدور إذا نفث برأ. وقد كان برؤه دائماً إلى حين، ثم يصدر.، فيعمد إلى هذا الشعر يصف فيه ما يعانى من الحب وما يلقى من آلامه.

وواضح في هذا الغزل الذي رويناه لعبيد الله أنه يخلو من الرغبات واللذائذ الحسية، وهذا طبيعي، فهو فقيه، بل هو من كبار الفقهاء في عصره، وهو من أجل ذلك لا تلم به نزوات الجسد، إذ هو في سريرته متمسك بدينه وطهارة خلقه، لذلك كنا نشعر عنده- كما شعرنا من قبل عند عروة- بسمو في عاطفته، بل لعله يتفوق على عروة في ذلك، إذ لم يعرف عروة بعشق على نحو ما عرف صاحبه، ولعل ذلك ما يجعلنا نحس في شعره بحرارة ولهفة أكثر من إحساسنا إزاء شعر عروة على الرغم مما فيه من توفر الموسيقى وجمال الأصوات.

ونحن إنما نسجل هذا كله لننفذ منه إلى أن موجة الغزل لهذا العصر كانت حادة وأنه لم يسلم من الإعجاب بها أحد، بل لقد ساهم فيها الفقهاء ولم يجدوا فيها حرجاً، بل لقد توسعوا في مساهمتهم، فلم يكن منهم أصحاب غزل فقط كعبيد الله، بل كان منهم من ينظمون هذا الغزل ويضعون له الأصوات كما رأينا عند عروة في غير هذا الموضع.

(٤) أغاني الغزل تصبح شعراً شعبيا عاما

لعل من الظواهر المهمة في أغاني الغزل لهذا العصر أنها أصبحت شعراً شعبيا عاما تتردد مقطوعاته في جوانب العالم العربي، إذ لم يكن للعرب حينئذ صحف يقرءونها سوى الشعر، فهو صحفهم التي يقرءون فيها حوادثهم وأخبارهم، ويرون فيها عواطفهم وشعورهم. وكلنا نعرف قصة جرير حين أساء إليه الراعي وابنه في البصرة فنظم فيه قصيدة طويلة ختمها بقوله:

فَغُض الطَّرفَ إنك من نُميرٍ فلا كَعباً بلغتَ ولا كِلابا

وغدا في المربد فأنشدها، فثبت الراعي ساعة، ثم رحل إلى الشُّريف وهو أعلى دار بني نمير بنجد، فوجد القصيدة قد سبقته[١]. ويروى أيضاً أن الحكم ابن عبدل الأسدي كلم محمد بن حسان بن سعد التميمي، وكان على خراج الكوفة، أن يترك لرجل ثلاثين درهماً من خراجه، فقال: أماتني الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً، فانصرف ابن عبدل غاضا، وهجاه. بقصيدة جاء فيها:

يقول أماتنِي ربى خِداعاً أماتَ اللهُ حسان بن سعدِ

فاشتهرت القصيدة حتى إن كان المكاري ليسوق بغله أو حماره فيقول: عد (كلمة لزجر الدواب) ثم يقول بعدها أمات الله حسان بن سعد. وكان أبوه يسمع ذلك فيقول: بل أمات الله ابنى محمداً، فهو عرضني لهذا البلاء في ثلاثين درهماً[٢]

وهذان الحادثان اللذان يرويهما صاحب الأغاني يدلان على شدة شيوع الشعر عند العرب، ومع ذلك فقصيدة جرير وقصيدة ابن عبدل لم تكونا من أغاني الغزل التي تُغَنَّى في العصر، بل كان يتناقلهما الناس والرواة. وإنما سقنا ذلك لندل على قابلية العرب لرواية الشعر وتداوله وإنشاده.

وقد توافر لأغاني الغزل مع هذه القابلية العامة عند العرب شيء مهم، بل لعله كان أكثر أهمية من هذه القابلية في حد ذاتها ونقصد أنها كانت تُغَنَّى وعمل هذا الغناء على إشاعتها بين الناس بوسيلتين: الأولى غناؤها في موسم الحج، فنحن نقرأ دائما في أخبار المغنين أنهم حبسوا الناس في الموسم، فهذا الغريض بالمزدلفة يغنى الناس ويحبسهم عن مناسكهم[١]، وهذا ابن سريج يغنى فيجعل الحاج يركب بعضهم بعضا[٢]. وكذلك كان يصنع ابن عائشة[٣] وغيره. وهذه كانت الوسيلة الأولى إلى إذاعة الأغاني بين الناس. والوسيلة الثانية كانت انتقال الأصوات نفسها من المدينة ومكة إلى الحواضر والبوادي المجاورة في الحجاز، ثم الحواضر البعيدة في العراق والشام. ولنتخذ الطائف مثلا لحواضر الحجاز، فإنها كانت تُتَّخَذُ مصيفا

---

[1] أغاني طبع دار الكتب ٢٩/٨ وما بعدها

[2] المصدر نفسه ٤١٢/٢.

[1] أغاني طبع دار الكتب ٣٦٢/٢

[2] المصدر نفسه ٣١٧/١

[3] المصدر نفسه ٢٠٨/٢.

لنبلاء المدينة ومكة، فكان المغنون في البلدتين ينزلون فيها، ومن أمثلة ذلك الثريا بنت على بن عبد الله الأموية مولاة الغريض وقَيل وسمية، فإنها كانت تصيف هناك[٤]، وأيضاً فإن العرجِي كان ينزل في عرج الطائف، وكان يصحبه بعض المغنين وعلى رأسهم فند، مولى عائشة بنت سعد، وذكر ذلك في شعره[٥]. وليس من شك في أن هؤلاء المغنين جميعا كانوا يذيعون هناك غزل الأحوص وعمر ابن أبى ربيعة وغيرهما ممن يغَنَّى في شعره بالبلدتين الكبيرتين. ومن الأدلة التي توضح ذلك عمر الوادي مغنى الوليد بن يزيد فقد كان من أهل وادي القرى بالحجاز، ويقول صاحب الأغاني إنه ذهب إلى الحرم فتعلم الغناء، ثم رجع إلى وادي القرى، فأخذ عنه حكم وذووه من أهل الوادي[٦] ومعنى ذلك أننا نجد في وادي القرى ما نجده في الطائف من أن المغنين ينقلون الغناء من المدينة ومكة بما فيه من غزل وما فيه من موسيقى. وليس ذلك كل ما نلاحظه في الحجاز، فقد كانت هذه الأغاني لا تشيع في الحواضر فقط، بل كانت تشيع أيضاً في البوادي، فقد روى عمر الوادي أنه كان يسير ليلة بين الروحاء والعرج، فسمع إنسانا يغنى صوتا لم يسمع قط أحسن منه، وهو:

وكنتُ إذا ما جئتُ سعدي بأرضها أرى الأرض تُطوى لي ويدنو بعيدها

من الخَفِراتِ البيض ود جليسها إذا ما انقضت أُحدوثةٌ لو تُعيدها

وكاد يسقط عمر من راحلته طربا وتبع الصوت، فإذا هو برجل يرعى غنما، وإذا هو صاحب ا أصوت، فأعلمه الذي أقصده إليه،وسأله إعادته عليه، فأعاده عليه مرارا حتى أخذه، وهو من خفيف الرمل. وقال الراعي في بعض حديثه لعمر الوادي إني ربما ترنمت به وأنا جائع فأشبع، وكسلان فأنشط، ومستوحش فآنس، ويروى الرواة أن عمر كان يشعر إزاء الصوت الشعور نفسه[١].

وعلى هذا النحو كانت أصوات المغنين في المدينة ومكة تنقل لا إلى الحواضر في الحجاز، بل إلى البوادي وبين الرعاة.ولم يكن هذا كله ما اتخذ في نقلها، فقد نقلت بعيدا حيث المغنون في العراق والشام، ولعل مما يدل على ذلك أننا نجد حنينا الحيرى يغنى في العراق بشعر

---

[4] المصدر نفسه١/٢١٢.

[5] أغاني ١/٣٩٣.

[6] أغاني ٧/٨٥.

[1] أغاني ٧/٨٦ وما بعدها.

للأحوص[٢]، كما يغنى بشعر لكثير بن كثير السهمي[٣] الشاعر المكي. وأمضى الغريض أيامه الأخيرة باليمن[٤] وغنى هناك فيما كان يغنى به في مكة من شعر الغزلين في الحجاز. كثير من المغنين والمغنيات في المدينة- كما مر بنا- وكذلك في مكة قصدوا إلى دار الخلافة في دمشق حيث غنوا الخلفاء، ولا بد أنهم كانوا في طريقهم وفى القوافل التي ركبوها يتغنون أغانيهم. وليس من شك في أن القوافل لعبت دورا مهما في إشاعة هذه الأغاني وذيوعها،

فبعد أن كانت هذه القوافل في الجاهلية تستخدم الحداء في أثناء سراها، أخذت في هذا العصر تستخدم الغناء، فابن مِسجح يقص علينا أنه ذهب إلى دمشق وكان في القافلة التي ذهب فيها جوار مغنيات[٥]. وأوضح من ذلك أننا نجد من أصحاب هذه القوافل مغنيا من مغنى المدينة اشتهر في العصر وهو دحمان وكان يكْرِي إلى المواضع ويتجر، وليس من شك في أنه كان يغنى في قافلته، بل كان يشركه بعض الجواري. وقد استمع الوليد بن يزيد إلى جارية تغنى في إحدى قوافله فاشتراها منه بعشرة آلاف دينار[١].

وهذا كله أحدث ما نريد أن نصل إليه وندل عليه من أن الغزل أصبح في هذا العصر شعرا شعبيا عاما، فالمغنون يرددونه في مواسم الحج وفى حواضر الحجاز وبواديها، وفى حواضر العراق والشام، وفى القوافل، والناس من ورائهم يصنعون صنيعهم.

وساعد على شعبية هذا الغزل وأغانيه أن الشعراء أخذوا يهذبون ألفاظه وموسيقاه على نحو ما قدمنا في غير هذا الموضع، وقد جعلوا لغته أكثر قربا للناس من لغة الشعر القديم، وحتى من لغة الشعر التقليدي المعاصر عند الفرزدق وجرير. ولم تكن لغته هي القريبة من نفوس الناس فقط، بل كانت معانيه أيضا، فهي تدور حول الحب ووقائعه، في حين يدور الشعر التقليدي حول وقائع قديمة حيث نجد الشعراء يفتخرون بوقائع آبائهم في الجاهلية وحروبهم. ومن الغريب أنهم تركوا وقائع الإسلام وفتوحاته واستمروا يتحدثون عن أيام الجاهلية!حروبها ووقائعها، وكان ذلك كله لا يقرب من نفوس الناس قرب معاني الأغاني التي دارت في أكثر

---

[2] أغاني ٣٤٢/٢.

[3] المصدر نفسه ٣٤٣/٢.

[4] المصدر نفسه ٣٩٩/٢.

[5] المصدر نفسه ٢٨٢/٣.

[1] أغاني ٢٥/٦ وما بعدها.

أحوالها على الحب ووقائعه. على كل حال كانت أغاني الغزل في هذا العصر تدور على ألسنة الناس فقد أشاعها المغنون وأشاعتها سهولتها وقرب لغتها ومعانيها. وليس من شك في أن ذلك كان إيذانا بأن تقتحم على الشعر التقليدي عقر داره في العراق، وتظفر به ظفرا محققا على ما سنرى.

(٥) تفوق الغزل وأغانيه على الشعر التقليدي

رأينا الغزل يصبح شعرا شعبيا عاما، وكان من آثار ذلك أن أخذت موجته تتسع، بل قل أخذت تعلو وترتفع وتسير قدما إلى الأمام، فإذا هي تكتسح كل الموجات التي تقابلها من موجات الشعر التقليدي، وتقصد موجات الهجاء والمديح وما يتصل بهما، وهو اكتساح بدأ في الحجاز ثم أخذ يمتد إلى الشام ثم العراق عقر الشعر التقليدي.

وأكبر الظن أن القارئ لم ينس ما قدمناه من أن الشعر العربي كان صحف العرب في العمر، وهي صحف مختلفة، تارة تكون رجزا وتارة تكون شعرا، وتارة تكون غزلا وتارة تكون مديحا أو هجاء، وقد أخذت تتركز هذه الصحف المختلفة في دارين كبيرتين: دار الحجاز ودار العراق، وكانت الدار الأولى مركز الغزل وأغانيه في حين كانت الثانية مركز الشعر التقليدي. فأما الدار الأولى فقد كانت تصدر صحيفتها منذ أوائل العصر الأموي، وكان يوجد بجانبها صحف صغيرة للشعر التقليدي في الحجاز، غير أنها لم تلبث أن ابتلعتها أو كادت، وحولتها جميعا– إلا في القليل– إلى أغان.

وعلى هذا النحو أخذت صحف الشعر التقليدي في الحجاز تختفي واحدة وراء الأخرى، فكانت لا تظهر إلا في فترات قليلة ثم ما تلبث أن تنقطع، وقد تعود إلى الظهور، ولكها سرعان ما تعود إلى الانقطاع. أما صحيفة الغزل وأغانيه فكانت هي الصحيفة الكبرى، وآية ذلك أن الشعراء لم يكونوا يشتهرون في هذه البيئة إلا بغزلهم، فكثير، مع أن له مدائح في الأمويين والهاشميين، إنما يشتهر بشعره كي عزة، وابن قيس الرقَيات، مع أن له مدائح في الأمويين والزبيريين، إنما يشتهر بغزله في الرقيات، وهكذا الأحوص إنما يعرفُ بغزله في أم جعفر أو في جميلة أو سلامة. وليس هذا كل أدلتنا على ما نزعمه فهناك دليل ثان وهو أن الشعراء في الحجاز أخذ بعضهم يقصر نفسه على الغزل الذي كانت تطلبه بيئته، فلا يتركه إلى غيره من فنون الشعر التقليدي، على نحو ما هو معروف عن عمر ابن أبى ربيعة.

وبينما كانت هذه الدار الأولى تُعنَى بإصدار صحيفة الغزل وأغانيه وقد أخذت تنتصر على ما حوها من صحف الشعر التقليدي حتى اكتسحتها جميعا، كانت الدار الثانية، دار العراق، لا تُصدر إلا صحيفة واحدة هي صحيفة الشعر التقليدي، وخير ما يمثلها نقائض جرير والفرزدق التي كانا ينشدانها في المربد بالبصرة، فتذيع على ألسنة العامة والخاصة هناك لسبب بسيط وهو أنها صحيفتهم اليومية.

ونحن نلاحظ أن أخبار هذه الصحيفة الثانية، صحيفة الشعر التقليدي في العراق، لم يكن لها طرافة أخبار الصحيفة الأولى، صحيفة الأغاني بالحجاز، لأنها انصبت في الغالب على ذكر وقائع وأحداث وأيام كانت للقوم في الجاهلية، وقلما عرضت لشيء من حياتهم الجارية، أو حياتهم اليومية الحاضرة. أما صحيفة الأغاني فقد كانت صحيفة يومية بالمعنى الدقيق هذه الكلمة، فيها يقرأ الناس ما يقع في مواسم الحج بين شعراء الحجاز والحواج، وفيها يقرءون ما يقع بين هؤلاء الشعراء وصواحبهم في المدينة ومكة.

كانت الصحيفتان تختلفان: صحيفة تاريخية، تتحدث عن الماضي البعيد غالبا ولا تكاد تلم بالحاضر إلا في النادر–، وصحيفة إخبارية– كل أحاديثها عن الحاضر، أو قل بعبارة أدق، إنها مرآة الحاضر بكل ما فيه من أحداث ووقائع. وليس هذا كل ما بين الصحيفتين من خلاف، فقد كانت الصحيفة التقليدية تخلو من الصور، فهي جافة، وإن أتت بصور فهي غالبا صور جاهلية، صور حرب ومتحاربين قدماء، أما الصحيفة الغنائية فصحيفة حية تمتك بالصور وأي صور: صور العذارى والجواري والنساء اللائى كن حديث أهل الحجاز، واستصبن شعراء المدينة ومكة.

وخلاف ثالث بين الصحيفتين عرضنا له قبل ذلك وهو أن إحداهما كانت تعتمد على التلوين، فهي تعتمد على التصوير من جهة، وتعتمد على التلوين من جهة ثانية، بخلاف الصحيفة الثانية، ونقصد بالتلوين ما كان يصحب صحيفة الغزل من موسيقى وغناء.

كانت صحيفة الغزل تتميز بخصائص كثيرة تتيح لها الانتصار والظفر على الصحيفة التقليدية كل ما يمثلها، وقد بدأ هذا الانتصار في الحجاز نفسه فأصبحت هي الصحيفة التي تتلي هناك، ولم تعد تظهر صحف للشعر التقليدي إلا لماما. ولم يقف انتشار هذه الصحيفة وتغلبها على الصحيفة الثانية صحيفة الشعر التقليدي عند الحجاز، فقد أخذت دمشق تسمع بها

وكذلك العراق. ولم تطلبها العراق توا لأنها كانت محافظة مغرقة في المحافظة وكانت تجد لذتها في الاستماع إلى ما يتلى في صحيفتها التقليدية، ومع ذلك فإن أصحاب هذه الصحيفة نفسها أخذوا يشعرون بما للصحيفة الأولى، صحيفة الأغاني، من خطر. ولعل ذلك ما جعل الفرزدق، وهو أحد أصحاب هذه الصحيفة يقول حين استمع إلى بعض الشعر الذي سجلته صحيفة الغزل: هذا الذي كانت الشعراء تطلبه، فأخطأته، وبكت الديار[١]، وكذلك قال صاحبه جرير: "إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه[٢]". ومع ذلك فالفرزدق وجرير لم يعدلا شيئا في صحيفتهما التقليدية، بل استمرا يصدرانها على النمط القديم.

لم تسرع العراق إذن إلى التعديل في صحيفتها التقليدية القديمة، ولعل الشام كانت أكثر منها إسراعا، وأتاح لها ذلك اتصالها بالمغنين والمغنيات منذ أوائل هذا العصر الأموي، فإن يزيد بن معاوية كان له ذوق موسيقى، وهو ابن ميسون بنت بحدل الكلبية، وكانت تنظم الشعر، وقد رفضت معيشة دمشق كما يقول الرواة، وآثرت عليها البادية، ونشأ ابنها على غرارها يحب الشعر، وكان يحب الغناء ويطرب للموسيقى وقد طلب المغنين من المدينة فذهبت إليه عزة الميلاء[٣]. ومن ذلك الوقت نجد الخلفاء يستقبلون كثيرا من المغنيات والمغنين في دمشق. ومعروف أنه تلا عصر يزيد عصر مضطرب، فلا نسمع عن مغنين ومغنيات ذهبوا من المدينة إلى الشام، حتى تهدأ الأمور، ويعتلى عرش الخلافة عبد الملك بن مروان فنجده يستقبل ابن مِسجح مغنى مكة ويسأله أن يغنيه الغناء المتقن[١] وكذلك استقبل بديح المليح مولى عبد الله بن جعفر، واستمع إليه وأثابه[٢]. وقد أقام الوليد ابنه برغم اشتغال جيوشه في فتوح الهند بقيادة محمد بن القاسم والأندلس بقيادة موسى بن نصير حفل استقبال في دمشق لابن. سريج، مغني مكة[٣]. ولم يكن سليمان بن عبد الملك يعجب بالغناء وكذلك عمر بن عبد العزيز ولكن

---

(1) أغاني ١/٧٥.

(2) المصدر نفسه ١/١٠٦.

(3) خزانة الأدب للبغدادي طبع بولاق ٣/٥٩٢.

(1) أغاني ٣/ ٢٨٤

(2) أغاني ١٤/١٠ وما بعدها.

(3) أغاني ١/٢٩٧.

لا يلبث يزيد بن عبد الملك أن يتولى الخلافة فيرسل في طلب المغنين من المدينة ويفد عليه معبد ومالك وابن عائشة[٤]، وقد اشترى سلاّمة القس وحبابة.

وهذه الصلة بين الخلفاء في دمشق وبين المغنين والمغنيات في الحجاز كانت تؤذن بانتصار صحيفة الغزل في هذا الإقليم الذي دخلته، إقليم الشام، وهو إقليم لم يكن يشارك مشاركة ذات قيمة في الأغاني حتى عصر يزيد بن عبد الملك، إذ كان يكتفي بقراءة ما يصله من صحيفة الأغاني الحجازية على أيدي الناشرين من المغنين والمغنيات.

وسرعان ما تحدث المفاجأة فإذا الوليد بن يزيد يخرج، أو يحاول أن يخرج، صحيفة للغزل وأغانيه في دمشق نفسها، كأنه يريد لها أن تكتفي بهذه الصحيفة الجديدة، وأن تجد فيها ما تريده من غذاء للشعر.

وكان الوليد شاعرا ممتازا، وفى كتابا لأغاني ترجمة مطولة له عرض فيها أبو الفرج لشعره وما غَنَّى فيه المغنون والمغنيات[٥]، وفى موضع آخر حيث يتحدث عن الخلفاء وأولادهم الذين تركوا أصواتا، نراه يضع في أعلى طبقاتهم الوليد إذ كان يضرب بالعود ويوقّع بالطبل ويمشى بالدف على مذهب أهل الحجاز[٦].

وإذن فالوليد كان من أصحاب الأغاني، وكان أيضاً من المغنين الذين يؤلفون الأصوات، لم يكن يغنى للناس، ولكن الناس تناقلوا غناءه. وما من ريب في أن هذا يعطى صحيفة الأغاني عنده طرافة ومن يرجع إليه في كتاب الأغاني يجده يتعلق بالأوزان القصيرة المعدلة والمجزوءة، وليس ذلك فقط، فقد روى له صاحب كتاب الأغاني قطعة من وزن المجتث[١] وهو وزن قصير حديث نظن أنه كان أول من نظم فيه.

واستمرت هذه الصحيفة الغنائية في الشام تصدر طوال حياة الوليد قبل خلافته، وفى أثناء خلافته، ويظهر أنه لم يكن لها أنصار كثيرون، فنحن لا نجد شاعر غزل في الشام بجانب الوليد بن يزيد وكان من نتائج ذلك أن صحيفته التي كان يصدرها هناك انقطعت بمجرد قتله ولم تعد للظهور، إنما تظهر هذه الصحيفة في إقليم جديد يتناولها من أيدي شعراء الحجاز

---

[4] أغاني ١٠٩/٥.

[5] انظر ترجمته في الأغاني ١/٧ وما بعدها.

[6] أغاني (طبع دار الكتب) ٢٧٤/٩.

[1] أغاني ١٧/٧.

والوليد بن يزيد، ويحقق لها من النجاح كل ما كان يحلم به أصحابها سواء في الشام أو في الحجاز، ونقصد إقليم العراق الذي أخذ يتصل بحركة الغناء والمغنين في الحجاز على نحو ما بينا ذلك في الفصل الثاني.

ونحن لا نصل إلى العصر العباسي حتى نجد كثيرين من أهل العراق عربا وموالى يتعاونون على إصدار صحيفة الغزل وأغانيه هناك، وساعد على ذلك أن الدولة اهتمت بهذه الحركة، وأصبحت لا تجد مغنيا مشهورا في الحجاز إلا وهو يفزع إلى العراق. وقد تكونت هناك مدارس للغناء والموسيقى، وكثر فيها الأساتذة والتلامذة كثرة مفرطة، بحيث غطت هذه المدارس على حركة الغناء القديمة في الحجاز. ولم يعد للحجاز شأن في الغناء والموسيقى حينئذ، فقد تركهما للعراق كما ترك معهما صحيفة الغزل التي كان يصدرها، فلم نعد نسمع عن شاعر لها كبير يظهر هناك مثل عمر بن أبى ربيعة والأحوص، بك اقتصر ذلك على العراق وشعرائه من مثل بشار ومطيع بن إياس وأبى نواس والعباس بن الأحنف وهلم جرا.

ولا نستطيع أن نعرض ببيان واضح لمدى ما كان للصحيفة الغنائية في العراق من شيوع وانتشار، ونشاط وازدهار، لأن ذلك يخرج عن موضوعنا، لكن يكفى أن نقول إننا لا نجد في العراق شاعراً مشهوراً في القرن الثاني إلا وتؤسس شهرته على ما يخرج من غزل. ومعنى ذلك أن صحيفة الغزل انتصرت أخراً في العراق على الشعر التقليدي، وقد جدد الشعراء، تحت تأثير الغناء والموسيقى، كثيرا من الأوزان، كما جددوا في اللغة والأساليب، وليس هنا مكان الإفاضة في ذلك. على أنه ينبغي ألا نظن أن صحيفة الشعر التقليدي انقطعت تماماً في العراق، فقد بقي منها بقايا، أهمها ما يتصل بالمديح وكانت تصدر هذه الصحيفة أعداداً ممتازة حين يقف الشعراء بأبواب الخلفاء والوزراء والأمراء فيمدحونهم ويأخذون جوائزهم.

ونرى من كل ما سبق أن صحيفة الغزل وأغانيه انتصرت انتصاراً واسعاً على صحف الشعر التقليدي، سواء في الحجاز أو في العراق أخيراً، فقد أصبحنا لا نكاد نسمع عن نقائض جرير والفرزدق، إذ هجرها الناس والشعراء إلى هذا الشعر الجديد الذي يخفي على الأسماع والأفواه.

الفصل الخامس

الأحوص

(١) نسب الأحوص وحياته وصفاته

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله[١] بن عاصم بن ثابت من بني ضبيعة بن عمرو، ابن عوف من الأوس[٢]. وكان يقال لبني ضبيعة في الجاهلية بنو كِسرِ الذهب[٣]. ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن حياة الأحوص إلا ما يروى عن جده عاصم من أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه بعثاً فقتله المشركون، وأرادوا أن يصلبوه فحمته الدبر، وهي النحل، فلم يقدروا عليه، حتى بعث الله عز وجل الوادي في الليل، فاحتمله السيل فذهب به، ولذلك يقال له حمِى الدبر[٤]، وافتخر الأحوص بذلك فقال:

وأنا ابن الذي حمتْ لحمه الدبـ ... ـر قتيلِ اللّحيان[٥] يوم الرجيعِ

وليس في كتب التاريخ ما يروى بعد ذلك عن جد الأحوص الأدنى عبد الله ولا عن أبيه. أما أمه فهي أُثَيلة بنت عمير بن مخشي، وليس بين أيدينا ما يوضح شخصيتها ولا شخصية أسرتها. وافتخر الأحوص نخال له فقال:

غسلتْ خالي الملائكةُ الأبـ ... ـرار ميتاً طُوبى له من صريعِ[٦]

---

[1] هكذا نسب الأحوص في الأغاني طبع دار الكتب ٢٢٤/٤ وفي طبقات ابن سلام ص ١٣٧ أنه ابن عبد الله بن محمد بن عاصم، وانظر. ابن سعد القسم الثاني من الجزء الثالث ص ٣٣.

[2] يقول ابن سلام إنه خزرجى، انظر الطبقات ص ١٣٧.

[3] أغاني ٤/ ٢٢٤.

[4] انظر ابن سعد في الجزء السابق ص ٣٣.

[5] أغاني ٤/ ٢٢٤ وكذلك ٤/ ٢٣٤ وا للحيان: حي من هذيل.

[6] أغاني ٤/ ٢٣٤.

وغسيل الملائكة هو حنظلة بن عامر من بنى ضبيعة[١] بن عمرو بن عوف من الأوس، قُتل في وقعة أُحد، فقال عنه النبي إن حنظلة لتغسله الملائكة[٢]. وإذا صح أنه خال أدنى للأحوص وأن أمه من أسرته يكون أوسيا أباً وأما.

واسم الأحوص- كما رأينا- عبد الله، وإنما لقب بالأحوص لحوص كان في عينيه وهو ضيق يعترى مؤْخِر العين. وكان الأحوص- إلى ذلك- أحمر شديد الحمرة، ووصفه الفرزدق فقال: كأنه وحرة[٣]، والوحرة يعسوب أحمر ينزل الأنبار.

ومن يقرأ أخبار الأحوص في كتاب الأغاني يحس أنه كان فيه نزق، بل حمق وطيش، فقد روى الرواة أن السيدة سكَينَة بنت الحسين ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم وافتخرت به، فافتخر هو عليها بأبيه حمِى الدبر وخاله غسيل الملائكة[٤]. وبفضل جد السيدة سكَينَة حمت أباه الدبر وغسلت خاله الملائكة!. ويروى الرواة أنه قدم البصرة فتزوج ابنة رجل من تميم، وخرج بها إلى المدينة وكانت أختها عند رجل في طريقها، فقالت له: اعدل بي إلى أختي، ففعل، فذبحت لهما وأكرمتهما ثم جاء زوجها، وكان في إبله فلما رآه الأحوص اقتحمته عينه وازدراه لقبحه، وقال توا[٥]:

سلام الله يا مطَر عليها ... وليس عليك يا مطر السلام

فطلّقْها فلست لها بكفء ... وإلا عض مفْرقك الحسام

وليس كل ما يلاحظ على الأحوص الطيش والحمق، فنحن نلاحظ عليه أيضاً ميلاً إلى الخصومة والشر مما يدل على أنه كان حاد الشعور، وهي حدة تحولت إلى هجاء كل من حوله، وبذلك ملأ قومه شرا. روى صاحب الأغاني أنه أقبل يوماً حتى وقف على معن بن حميد الأنصاري أحد بني عمرو بن عوف بن جحجبي فقال:

رأيتك مزهوا كأَن أباكم ... صهيبةَ أمسى خير عوف مركَّبا

---

[1] طبقات ابن سعد ٤٦/٥.

[2] السيرة النبوية لابن هشام ٧٩/٣.

[3] أغاني ٢٣٢/٤.

[4] أغاني ٢٣٤/٤.

[5] أغاني طبع بولاق ٦٤/١٤.

تُقربكم كُوثَى[١] إذا ما نُسبتُم وتُنكركم عمرو بن عوف بن جحجبي

عليك بأدنى الخَطْب إن أنت نلته وأَقْصرِ فلا يذهب بك النَّيه مذهبا

فقام إليه بنوه ومواليه، فقال: دعوا الكلب، خَلُّوا عنه، لا يمسه أحد منكم، فانصرف، حتى إذا كان عند أحجار المراء بقباء لقيه ابن أبى جرير أحد بنى العجلان، وكان سيداً، فقال له الأحوص:

وإن بقومٍ سودوك لحاجةً إلى سيد لو يظفرون بسيدِ

فألقى ثيابه، وأخذ بحلق الأحوص، ومع الأحوص راويته، وجاء الناس ليخلصوه، فحلف لئن خلصه أحد من يديه ليأخذنه، وليدعن الأحوص، فخنقه حتى استرخى، وتركه حتى أفاق، ثم قال له: كل مملوك لي حر، لئن سمع أو سمعت هذا البيت من الناس لأضربنَّك ضربة بسيفي أريد بها نفسك، ولو كنت تحت أستار الكعبة، فأقبل الأحوص على راويته فقال: إن هذا مجنون، ولم يسمع هذا البيت غيرك، فإياك أن يسمعه منك أحد[٢]

وعلى هذا النحو كان الأحوص يسير مع الأنصار هذه السيرة من هجائهم، وكانوا يسيرون معه هذه السيرة من إهانته وازدرائه، ولم يكونوا وحدهم الذين يزدرونه، فقد كان بعض القرشيين يزدرونه أيضاً، روى صاحب الأغاني أنه مر بعباد، بن حمزة ابن عبد الله بن الزبير ومحمد بن مصعب بن الزبير بخيمتي[٣] أم معبد، وهما يريدان الحج وكان آتياً من عند يزيد بن عبد الملك، وهو على نجيب له فاره ورحل فاخر وبِزة مرتفعة، فحدثهما أنه قدم على يزيد بن عبد الملك، فأجازه وكساه وأخدمه[٤]، فلم يرهما يهشان لذلك، فجعل يقول: خيمتي أم معبد، عباد ومحمد، كأنه يروض القوافي للشعر يريد قوله، فقال له محمد بن مصعب: إني أراك في تهيئة شعر وقواف، وأراك تريد أن تهجونا، كل مملوك، لي حر لئن هجوتنا بشيء إن لم أضربك بالسيف مجتهداً على نفسك، فقال الأحوص: جعلني الله فداك !إني أخاف أن تسمع هذا

---

[1] كوثى: محلة بمكة لبنى عبد الدار.

[2] أغاني ٤/٢٤١.

[3] موضع بين مكة والمدينة

[4] أعطاه خادماً.

في عدواً، فيقول شعراً يهجوكما به فينحلنيه وأنا أبرئكما الساعة، كل مملوك لي حر إن هجوتكما ببيت شعر أبدا[١]

ولعل في هذا كله ما يدل على أنه كان ذا عاطفة جامحة، وأن هذه العاطفة تحولت إلى هجاء من حوله من قرشين وأنصار، حتى أصدقائه. روى صاحب الأغاني أنه لما أراد الخروج إلى يزيد بن عبد الملك نهض صديق له كان هو صديقه الوحيد من بنى جحجبى، فجهزه وقام بحوائجه وشيعه، فلما ركب الأحوص أقبل عليه فقال: لا أخلف الله عليك بخير، فقال له غفر الله لك! فقال الأحوص: لا والله أو أعقلها حرباً[٢]

وطبيعي أن يكون الأحوص بسبب هذا الشر كله منبوذاً من قومه في المدينة، وأيضاً فإنه كان ضعيف الخلق لا يبالي أحداً[٣]، فتحاماه الناس وابتعدوا عنه لسفاهة لسانه وسفاهة خُلقه جميعاً.

وأحس الأحوص أنه غريب في قومه، فهم يزورون عنه كلما لقوه، فماذا يصنع؟ لقد رأى أن يولّى وجهه نحو دمشق وأن يتصل ببني أمية، فهم الذين يستطيعون إذا قربوه أن يفرضوه على قومه فرضاً. وهكذا ذهب يستعين بهم، ودفعه إلى ذلك أنه لم يكن مثرياً، وأنه أراد أن يدفع بهم شر الحاجة. وقد قربوه منهم، وأجزلوا له في مكافآتهم، حتى لنراه يقول[٤]:

وما كان مالي طارفاً من تجارة　　وما كان ميراثاً من المال متْلَدا

ولكن عطايا من إمامٍ مبارك　　ملا الأرض معروفاً وجوداً وسؤْددا

فبنو أمية هم ثروة الأحوص وتجارته التي يستمد منها ما ينفقه. ويظهر أنها كانت ثروة وتجارة ممتازة فقد روى صاحب الأغاني أنهم أعطوه في إحدى قصائده لهم عشرة آلاف دينار[٥] وأعطوه في أخرى مائة ألف درهم[٦]، ومن هنا كان الأحوص يكثر من مديحهم ولعل ذلك كان من أسباب كراهية أهل المدينة له، فقد عرفنا قبلا أنهم لم يكونوا من هوى بنى أمية،

---

(1) أغاني ٤/٢٤٢.

(2) أغاني ٤/٢٤٠.

(3) أغاني ٤/٢٣٣.

(4) أغاني٩/٨.

(5) المصدر نفسه ٩/٨.

(6) المصدر نفسه ٩/١٧٢.

بل إن بنى أمية كانوا يستأجرون الشعراء من أمثال الأخطل لهجائهم. وكان شعراء المدينة من أمثال عبد الرحمن بن حسان يردون على الأخطل وأمثاله هجاءهم، ويهجون معهم معاوية وابنه يزيد.

أما اليوم، فقد ظهر الأحوص، ود فعه قومه، فاندفع إلى الأمويين يتقرب إليهم بقصائده ومدائحه،التي يبالي فيها ما شاءت له المبالغة، حتى ليمكن أن نعده من شعراء البيت الأموي في العصر، ولو أن ديوانه بين أيدينا لاستطعنا أن نفهم في وضوح هذا الجانب من شعره ولكنه مفقود، ولم يبق منه إلا قطع في كتب الأدب، وأهمها الأغاني، ومع ذلك فقد روى له شعر في الوليد بن عبد الملك وفى يزيد أخيه، وهو في هذا الشعر لا يقف عند وصفهما بأنهما كريمان شجاعان من بيت شريف، بل ينفذ إلى إمامتهما الدينية في الناس، واستمع إليه يقول في الوليد[١]:

إمام أتاه الملك عفواً ولم يثِب ... على ملْكه مالاً حراماً ولا دما

تخيره رب العباد لخلقه ... وليا وكان الله بالناس أعلما

فلما ارتضاه الله لم يدع مسلما ... لبيعته إلا أجاب وسلَّما

ينال الغنى والعز من نال وده ... ويرهب موتاً عاجلاً من تشأما

وإن بِكَفَّيه مفاتيح رحمة ... وغَيثَ حياً يحيا به الناس مرهِما[٢]

وهذه نغمة لا شك في أن الوليد وغيره من بنى أمية كانوا يعجبون بها، وكان المغنون ما يفتأون يغنونهم فيها. والحق أن الأحوص كان يغلو في مدحهم، إذ كان يمدحهم على نحو ما يمدح الشيعة أئمتهم، لا يمدحهم بالسياسة والحزم، كما يمدحهم الأخطل مثلاً، وإنما يمدحهم بأنهم أئمة الله، اختارهم لخلقه، وكأنه يرد بذلك على الشيعة الذين يزعمون أن النبي أوصى لعلى، واستمرت الوصية تتابع في أبنائه. وهو أيضاً يرد عليهم ما يدعونه على الأمويين من سفك الدماء والظلم على نحو ما نجد عند الكميت في هاشمياته، فهذا الوليد لم يسفح دماً ولم يثب مالاً حراماً، وإن يكفيه مفاتيح رحمة يفتح بها على الناس أبوابها، وسحب كرم يرسل بها على الناس غيثها.

---

[1] أغاني ٢٩٨/١.

[2] الحيا: الخصب والمطر. مرهماً: لا يكف.

ويمثل هذا الشعر كان الأحوص يأخذ من بنى أمية الألوف وكانوا يرسلون في طلبه[١]. وتروى كتب[٢] الأدب أنه مدح عبد العزيز بن مروان، ويظهر أنه طلبه وهو في مصر، كغيره من شعراء الحجاز، فذهب إليه. وتدل أخباره؟ أنه كان كثير التقلب في البلاد وأنه كان يذهب إلى العراق، وأكبر الظن أنه كان يذهب لمديح بشر بن مروان كعبة الشعراء ومقصدهم هناك. وليس بين أيدينا ما يدل على أنه قصد عبد الملك بن مروان، ولكن المعقول أن لا يمدح أخاه عبد العزيز والى مصر ويترك الخليفة وراءه.

وليس من شك في أن هذه الصلة التي عقدها بينه وبين بنى أمية كانت تتيح له أن يسير سيرته المعوجة التي عرف بها في المدينة، فليس هناك وال يستطيع أن ينال منه لأنه شاعر سادته الذين يولونه، وما زال هذا شأنه حتى تولى سليمان ابن عبد الملك، وكانت فيه شدة، فولى على المدينة أبا بكر بن حزم، وكان هو الآخر لا يقل عن مولاه شدة. ويروى أن سليمان أرسل إليه أن يخصي المخنثين في المدينة لما سمع من إفسادهم لنسائها فخصاهم[٣]

ولما رأى أشراف المدينة شدة الخليفة الجديد وشدة ابن حزم واليه، تقدموا إلى هذا الوالي يشكون الأحوص وسيرته، وقيل بل تقدموا إلى سليمان نفسه، فشكوا إليه الأحوص وأنه يشبب بنسائهم[٤] فكتب إلى ابن حزم يأمره أن يضربه مائة سوط ويقيمه على البلس[٥] للناس، وصدع ابن حزم بما أمره، فجلد الأحوص مائة، وأقامه على البلس، فكان يصيح:

ما مِن مصيبةِ نكبة أُمنَى بها ... إلا تُعظِّمنى وترفع شاني

وتزول حين تزول عن متخمط[٦] ... تُخْشَى بوادره على الأقرانِ

إني إذا خفي اللئام رأيتني ... كالشمس لا تخفى بكل مكانِ

إني على ما قد ترون محسد ... أَنْمى على البغضاء والشنآن

أصبحتُ للأنصار فيما نابهم ... خَلَفاً وللشعراء من حسان[١]

---

[1] أغاني ٤/٢٥١.

[2] ابن سلام ص ١٣٨.

[3] أغاني ٤/٢٧١ وما بعدها.

[4] المصدر نفسه ٤/٢٣٣ وكذلك ٤/٢٣٩

[5] البلس: جمع بلاس وهي غرائر كبار يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به. وانظر ٤/٢٤٦.

[6] متخمط: متكبر.

وما زال الأحوص واقفا على البلس حتى جاءه بنو زريق من الخزرج فدفعوه عنها واحتملوه[٢]. والأحوص يأسى في هذه الأبيات على نفسه، ويقول إنه أصبح خلفاً للأنصار فيما نابهم. ولكن لا يظن القاري أنه استشعر بعد ذلك أو قبل ذلك مأساة الأنصار فيما حل بهم في أثناء العصر الأموي، فإنه لم يكن يستشعر شيئاً من هذا أبداً، أما البيت فهو لا يعدو فكرة طارئة لم يكن لها أي ظل وراءها. وآية ذلك أنه أخذ يهجو ابن حزم جزاء لما صنع به، ولكنه كان يفرق دائماً بينه وبين بنى أمية، حتى ينحيهم بعيداً عن خصومته معه، واستمع إليه يقول[٣]:

أَهوى أمية إن شَطَّتْ وإن قربتْ ... يوماً وأُهدى لها نُصحى وأشعارى

لا تَرثين لحزمي رأيتَ به ... ضرا ولو ألقَى الحزمي في النارِ

الناخسين بمروانٍ بذى خُشُبٍ ... والمقْحِمِين على عثمان في الدار

لم يحاول الأحوص أن يهجو سليمان بن عبد الملك لجلده إياه، بل لقد استمر، كما يقول، يهدى إليه وإلى غيره من بنى أمية أشعاره. وفى هذه الأبيات ما يكشف عن ضعف خلقه، فهو يحاول أن يوقع بين ابن حزم ومن ولوه من بنى أمية، إذ يرميه بأن آباءه أعانوا على قتل عثمان يوم الدار، كما أعانوا على إزعاج الأمويين وعلى رأسهم مروان من وادي ذي خُشب القريب من المدينة قبل واقعة الحرة. ولعل في ذلك ما يكشف، من بعض الوجوه، عن موقف الأحوص من خصومة أهل المدينة لبنى أمية، وأنه لم يكن يحس شيئاً من هذه الخصومة.

وقد رجع الأحوص بعد جلد ابن حزم له وتشهيره به يعلن محبته للأمويين وأنه يهواهم، كما رجع يهدى إليهم أشعاره. روى الرواة أنه لما توفى سليمان بن عبد الملك وخلفه عمر بن عبد العزيز وفد عليه مع كثير ونصيب، وامتنع عليهم عمر، لأنه كان يكره أن يجيز على الشعر، ولكنه عاد فأذن لهم، وأنشده الأحوص قصيدة بديعة يقول فيها:

رأيناك لم تعدل عن الحق يمنَةً ... ولا يسرةً فعلَ الظَّلوم المجادلِ

ولكن أخذتَ القصد جهدك كله ... وتَفْفُو مثالَ الصالحين الأوائل

---

[1] أغاني ٤/٢٤٦ وكذلك ٤/٢٤٠.

[2] أغاني ٤/٢٣٩.

[3] المصدر نفسه ٤/٢٣٨.

فقلنا ولم نكذب بما قد بدا لنا ... ومن ذا يرد الحقَّ من قول عاذلِ

ولولا الذي قد عودتْنا خلائفٌ ... غطاريفُ كانتْ كالليوث البواسلِ

لما وخَدتْ[١] شهرا برِحلي جسرةٌ[٢] ... تفُلُّ متون البِيد بين الرواحل

ولكن رجونا منك مثل الذي به ... صرِفنا قديماً من ذَويك الأفاضل

فإن لم يكن للشعر عندك موضع ... وإن كان مثل الدر من قول قائل

وكان مصيباً صادقً لا يعيبه ... سوى أنه يبنَى بناء المنازل

فإن لنا قُربى ومحض مودة ... وميراثَ آباء مشوا بالمناصلِ[٣]

فذادوا عدو السلْم عن عقْر دارهم ... وأَرسوا عمود الدين بعد تمايلِ

ويقول الرواة إن عمر أعطاه ثلثمائة درهم[٤]. وعاد الأحوص إلى المدينة، وكان ابن حزم لا يزال عليها. ويظهر أن الأحوص أخذ يسير سيرته القديمة، فرفع الناس أمره إلى ابن حزم، وكان صدره موغراً عليه لكثرة أهاجيه فيه، فكتب إلى عمر بأمره فبعث إليه أن ينفيه إلى دهلك[٥] ونفاه ابن حزم واستمر هناك طوال خلافة عمر، ولم تنفعه قصائده الكثيرة التي يترضاه بها ويستعطفه، واستمع إليه يقول في إحدى هذه القصائد[٦]:

أيا راكباً إما عرضتَ فبلِّغَن ... هديتَ أمير المؤمنين رسائلى

وقل لأبى حفصٍ إذا ما لقيته ... لقد كنت نقَّاعاً قليلَ الغَوائلِ

أفى الله أن تُدنُوا ابن حزمٍ وتقطعوا ... عرى حرمات بيننا ووصائل[٧]

وكيف ترى للعيش طِيباً ولذة ... وخالُك أمسى موثَقاً في الحبائلِ [١]

---

[1] وخدت: أسرعت.

[2] الجسرة: الناقة السريعة.

[3] المناصل: السيوف والرماح

[4] الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣١٧، الأغاني طبع دار الكتب ٦٤/٩. ويلاحظ أن ووفقنا بينها معتمدين في ذلك على الروايات مضطربة فيمن نفى الأحوص إلى دهلك وما بعدها، وانظر الأغاني طبع دار الكتب ٢٥٦/٩ !ما بعدها. شعر الأحوص نفسه، فجعلنا لسلمان أمراً بالجلد هل هو عمر أو سليمان بن عبد الملك كما في الأغاني وجعلنا النفي لعمر بن عبد العزيز.

[5] دهلك: جزيرة في بحر القلزم بينها وبين بر الين نحو ثلثين ميلا. وانظر في الخير هنا

[6] أغاني٦٥/٩.

[7] الوصائل: جمع وصيلة وهي ما يوصل به الشيء.

[1] يشير إلى رحم بينهما.

وما طمع الحزمي في الجاه قبلها إلى أحد من آل مروان عادلِ
وشَى وأطاعوه بنا وأعانه على أمرنا من ليس عنا بغافلِ

وتحول في بقية القصيدة يهجو ابن حزم، ويعلن أنه رجا منه الصلح. حتى إذا بلغ منه ما يريد التفت إلى الشامتين به، يعلن أن مثل هذه النكبة لا تقل من قوته وعزيمته. وهذه معان فيها شيء من القوة والصبر على البلاء الذي نزل به، ولكن بجانبها أبيات وأشعار أخرى فيها تخاذل وتضرع إلى عمر أن ينقض ما أبرم فيه، كأن يقول[٢]:

هل أنتَ أمير المؤمنين فإنني بودك من ود العباد لقانع
متمم أجرٍ قد مضى وصنيعة لكم عندنا أو ما تُعد الصنائع
فكم من عدو سائلٍ ذي كَشَاحة ومنتظرٍ بالغيب ما أنت صانع

ولم يغنه مثل هذا التضرع عند عمر، ولا ما أرسل إليه من أشعار أخرى، وهي كلها تنحو هذا النحو من التوسل والتزلف بالرحم والقرابة، واستمع إليه يقول في قصيدة أخرى[٣]:

ألا صِلةُ الأرحام أدنى إلى التُّقَى وأظهر في أَكْفائه لو تكرما
فما ترك الصنْع الذي قد صنعتَه ولا الغيظُ منى ليس جِلْداً وأَعظُما
وكنا ذوى قُربى لديك فأصبحتْ قرابتُنا ثَدياً أجد مصرما[٤]
وكنتَ وما أملت منك كبارق لَوى قَطْره من بعدما كان غَيما
وقد كنتَ أرجى الناس عندي مودةً ليالى كان الظن غَيباً مرجما
أَعدك حِرزاً إن جنيتُ ظُلامةً ومالاً ثريا حين أحملُ مغْرما
تدارك بِعتْبى عاتباً ذا قرابة طوى الغيظَ لم يفتح بسخط له فما

ولم ينفعه ذلك شيئاً، ولم يخل سبيله عمر. ويقال إن رجالاً من الأنصار أتوا عمر فكلموه فيه، وسألوه أن يعفو عنه، فلم يقبل شفاعتهم، وقال والله لا أرده ما كان لي سلطان[١]. فمكث في منفاه بقية ولاية عمر وصدراً من ولاية يزيد ابن عبد الملك، إذ كانت عنده جارية مغنية

---

[2] أغاني ٦٦/٩.

[3] أغاني ٢٤٩/٤، وقد ذكر أبو الفرج سبباً آخر للقصيدة.

[4] الثدي الأجد: اليابس لا غذاء فيه. والمصرم: منقطع اللبن

[1] أغاني ٢٤٧/٤ وما بعدها.

من صواحب الأحوص القديمات في المدينة، وهي حبابة، فأرسل إليها الأحوص بشعر يمدح فيه يزيد، وتوسل إليها أن تغنيه به، حتى يعفو عنه، فصنعت، وغنته هذا الصوت:

أيهذا المخبرى عن يزيد بصلاحٍ فِداك أهلي ومالي

ما أبالي إذا يزيد بقى لي من تولَّتْ به صروفُ الليالي

وواضح أنه يعرض في البيت الثاني بعمر، ويستبشر بولاية يزيد، ولما سمع يزيد من جاريته الصوت قال: من يقول هذا؟ قالت: الأحوص وهونت أمره، وكلمته في أمانه، فأمنه[٢] وكتب برده وحمله إليه، وأنفذ إليه صلات سنية، فلما قدم إليه أدناه وقربه وأكرمه. ويروى الرواة أنه قال له يوماً في مجلس حافل: والله لو لم تمت إلينا بحق ولا صِهر ولا رحِم إلا بقولك:

وإني لأستحييكم أن يقودني إلى غيركم من سائر الناس مطْمع

لكفاك ذلك عندنا ولم يزل ينادمه وينافس به حتى مات[٣].

أصبح الأحوص شاعر يزيد المقرب منه، وقد أخذ يرد له جميله حسن صنيعه بقصائد عذبة بديعة، لم تبق منها إلا بقايا، احتفظ بها كتاب الأغاني. وهي تدل على إخلاصه ليزيد الذي رد إليه حريته. ولم يكتف الأحوص بهذه المدائح وما قدم لمولاه، فقد تعرض لخصومه يهجوهم ويقذع في هجائهم، وورطه هذا الهجاء في بلاء كثير. روى صاحب الأغاني أن يزيد بن عبد الملك بعث، حين قتل يزيد ابن المهلب، في الشعراء، يأمر بهجاء يزيد بن المهلب، منهم الفرزدق وكثير والأحوص. فقال الفرزدق: لقد امتدحت بنى المهلب بمدائح ما امتدحت بمثلها أحداً، وإنه لقبيح بمثلى أن يكذب نفسه على كبر السن، فليعفني أمير المؤمنين، فأعفاه، وقال كثير: إني أكره أن أعرض نفسي لشعراء أهل العراق إن هجوت بنى المهلب. وأما الأحوص فإنه هجاهم. ثم حدث أن بعث به يزيد بن عبد الملك إلى الجراح الحكمي وهو بأذربيجان، وكان بلغ الجراح هجاء الأحوص بنى المهلب، فبعث إليه بزق من خمر، فادخل منزل الأحوص، ثم بعث إليه خيلا فدخلت منزله، فصبوا الخمر على رأسه، ثم أخرجوه على رؤوس الناس، فأتوا به الجراح، فأمر بحلق رأسه ولحيته، وضربه الحد بين أوجه الرجال، والأحوص

---

[2] أغاني ٤/٢٤٩.

[3] أغاني ٩/٦٧.

يقول: ليس هكذا تضرب الحدود! فجعل الجراح يقول: أجل ولكن لما تعلم. ثم كتب إلى يزيد بن عبد الملك يعتذر، فأغضى له عليها[١]، لما كان له من قوة العصبية هناك. وعاد الأحوص إلى دمشق يجر أذياله. ويظهر أن حياته لم تطل بعد هذا الحادث كثيراً، فنحن لا نجد له أخباراً مع من جاء بعد يزيد من الخلفاء، ويقول الرواة إنه توفى بدمشق بعد مرض ألم به[٢].

(٢) غزل الأحوص

ليس من شك في أن شعر الأحوص يعتبر صورة طريفة للشعر والفن في المدينة في أثناء العصر الأموي. والغزل هو أهم خطوط هذه الصورة وأكثرها بهجة ورواء. وطبيعي أن يبرع الأحوص في الغزل لأنه كان متعة نفسه ومتعة أهل المدينة من حوله. وقد تحدثنا عن هذا الجانب قبلاً، وصورنا كيف كان أهل المدينة أصحاب صبابة وغزل، وكيف كانوا يشغفون بالأغاني التي تقض خواطر العشاق والمحبين شغفاً شديداً، حتى عبادهم وزهادهم لم يبرءوا من هذا الشغف.

واستطاع الأحوص أن يمدهم في هذا الجانب بفيض لا ينضب من حكاية العشق والصبابة بالمرأة والإفصاح عن لواعج الحب وما يصيب به أصحابه من عذاب ووصب، بل قل ما يصيب به أصحابه من سقم، كلما أرادوا أن يشتفوا منه زدوا سقماً على سقم، ولعل ذلك ما جعله يردد[٣]:

إذا قلتُ إني مشْتف بلقائها ... فحم التلاقي بيننا زادني سقْما

فاللقاء والقرب من صاحبته كل ذلك ينشر حوله جوا مريض الأنفاس، ولكنه مع ذلك جو فيه لذة لا توصف. وكان الأحوص يشعر بذلك شعوراً متأصلاً في ذات نفسه، ولعله من أجل ذلك كان يقول[١]:

إذا أنت لم تعشقْ ولم تَدرِ ما الهوى ... فكُن حجراً من يابِس الصخْرِ جلْمدا

---

[1] أغاني ٤/٢٥٥ وما بعدها

[2] انظرا لأغاني ٤/٢٦٨ وخزانة الأدب للبغدادي ١/٢٣٢.

[3] أغاني ٤/٢٦٦ وما بعدها.

[1] أغاني طبع بولاق ١٣/١٥٨.

فالحياة في رأى الأحوص هي العشق، ومن لم يعشق ينبغي ألا يعد نفسه حيا، لأن الشعور بالحياة ينقصه، وما الحياة بدون عشق؟ إنها تصبح، في رأيه، ظلاماً خالصاً، بل إنها تفقد الإنسان حسه، وتجعله حيواناً شديد الغباوة، بل حجراً من الصخر شديد القساوة:

الأحوص إذن من الشعراء الغزلين الذين يتعمق العشق أفئدتهم لأنهم يؤمنون بأنه نعيم الدنيا إن خلت من أشعته انطفأت فيها بهجتها الحقيقية، وأطبق الظلام من كل جانب. ليست الحياة في رأى الأحوص شيئاً مذكوراً إن هي خلت من العشق، ولقد كان يقول ذلك في إيمان عميق، ولذلك كان يعلن دائماً أنه لن ينسى حبه حتى يوم الحشر يوم تبلى السرائر[٢]:

ستَبقى لها في مضمر القلب والحشَا سرِيرةُ حب يوم تُبلَى السرائر

حبه إذن لن ينتهي بموته، بل سيحشر معه، ولن ينساه في هذا اليوم يوم الروع والفزع الأكبر! واستمع إلى هذا البيت الذي يصور حقيقة العاشق وما يعتريه من كرب الوجوم حين يلقى صاحبته[٣]:

فما هو إلا أن أراها فُجاءةً فأُبهتَ حتى ما أكاد أجيب

فهو يعبر تعبيراً دقيقاً عن لحظة المفاجأة وما يصحبها من حيرة في نفس العاشق حتى لينعقد لسانه. ولعل أجمل ما نظمه في هذا الباب تلك المقطوعات التي ناجى بها صاحبته أم جعفر، وهي سيدة من بنى خطمة من الأوس، وكان يكثر فيها من التشبيب والغزل، ومن شعره البديع فيها[١]:

لقد منعتْ معروفَها أُم جعفرٍ وإني إلى معروفها لفقير
وقد أنكرتْ بعد اعتراف زيارتي وقد وغِرتْ فيها علي صدور
أدور ولولا أن أرى أم جعفرٍ بأبياتكم ما درتُ حيث أدور
أزور البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها وقلبي إلى البيت الذي لا أزور
وما كنت زواراً ولكن ذا الهوى إذا لم يزر لا بد أن سيزور
أزور على أن لست أنفك كلما أتيت عدوا بالبنان يشير

---

[2] أغاني ٤/٢٤٨ وخزانة الأدب ١/٢٣٣.

[3] أغاني ٤/٢٤٧.

[1] أغاني طبع دار الكتب ٦/ ٢٥٥

وهو يستهل هذه القطعة بأن أم جعفر تتدلل عليه وتتمنع، ويقول الرواة إن أخاها " أيمن "كان يتوعده ويتهدده، وإنه استعدى عليه والى المدينة في خبر طويل ذكره صاحب الأغاني[٢]. ولعل ذلك ما جعل الأحوص يتعلق بها ويشتد تعلقه، فيضع فيها شعراً كثيراً، إذ أحس في حبها شيئاً من الحرمان، وكان يحبها من أعماق نفسه، ولم يستطع لقاءها فاشتعل قلبه حباً. وزاده اشتعالاً أنه كان لا يجد سبيلا إلى رؤيتها، فكان يزور البيوت اللاصقات ببيتها، وكان يكثر من الدوران حول دارها، لعله يشفى ما به من سقم وعشق، ولكن أنى له الشفاء، وأيمن يبادره العداء، وتبادره هي بالجفاء، بل بالتنكر والاستخفاء. ولقد تجالد يوماً هو وأيمن بسببها فأصلاه سياطا حامية[٣]، وكان ذلك سبباً- على ما يظهر- في أنه ابتعد عن الدوران حول بيتها، وقد ذهب يعبر عن ذلك في تذلل لها وضراعة، يقول[٤]:

وإني لآتى البيتَ ما إن أحبه	وأُكثر هجر البيت وهو حبيب
وأُغضي على أشياء منكم تسوءني	وأُدعى إلى ما سركم فأُجيب
أبثُّكِ ما ألقى وفى النفس حاجةٌ	لها بين جِلْدي والعظامِ دبيب
لك اللهُ إني واصلٌ ما وصلْتِني	ومثْنٍ بما أوليتِني ومثيب
وآخذ ما أعطيتِ عفواً و إنني	لأَزور عما تكرهين هيوب
فلا تتركي نفسي شَعاعاً فإنها	من الحزن قد كادت عليك تذوب

فقد تعود أن يهجر بيتها، أو بعبارة أدق، البيوت اللاصقات ببيتها، عوده ذلك أيمن وسياطه، ومع ذلك فهو لا يزال يذكرها، ويغضي على ما تصنعه هي وما يصنعه أيمن، رجاء أن تمن عليه بلقاء أو نظرة. وكانت امرأة عفيفة وسيدة شريفة، وكان ذلك حريا أن يدفع الأحوص عنها، ولكنه استمر في غزله واستمر يطلب إليها كما نرى هنا أن تصله وأن تعطيه ولو عفواً، وما كانت تعطيه شيئاً، بل لقد جعلته يوماً يشهد أمام الناس أنه لا يعرفها. روى صاحب الأغاني أنه لما أكثر الأحوص من ذكرها جاءت منقبة، فوقفت عليه في مجلس قومه، وهو لا يعرفها فقالت له: اقضي ثمن الغنم التي ابتعتها منى، فقال: ما ابتعت منك شيئاً، فأظهرت كتاباً قد وضعته عليه، وبكت وشكت حاجة وضرا وفاقة، وقالت: يا قوم كلموه، فلامه قومه، وقالوا

---

[2] أغاني ٦/ ٢٥٤.

[3] أغاني ٦/ ٢٥٤.

[4] أغاني ٦/ ٢٥٧.

اقض المرأة حقها، فجعل يحلف أنه ما رآها قط ولا يعرفها، فكشفت وجهها وقالت ويحك! أما تعرفني فجعل يحلف مجتهداً أنه ما يعرفها ولا رآها قط، حتى إذا استفاض قولها وقوله، واجتمع الناس وكثروا وسمعوا ما دار، وكثر لغطهم وأقوالهم، قامت، ثم قالت: أيها الناس، اسكنوا.. ثم أقبلت عليه، وقالت: يا عدو الله صدقت! والله ما لي عليك حق ولا تعرفني، وقد حلفت على ذلك، وأنت صادق، وأنا أم جعفر، وأنت تقول: قلت لأم جعفر وقالت لي أم جعفر في شعرك، فخجل الأحوص وانكسر عند ذلك[١].

وأكبر الظن أن الأحوص لم يكن محظوظاً عند حرائر المدينة، لا عند أم جعفر ولا عند غيرها، ولعل ذلك ما جعله يعرض عن الحرائر جملة فيقول[٢]:

ثِنْتان لا أدنو لوصلهما ... عِرس الخليل وجارةُ الجنْبِ[٣]

أما الخليلُ فلست فاجعه ... والجار أوصاني به ربي

ولسنا ندرى أكان يقول الأحوص ذلك عن إخلاص ونية صادقة، أو كان يقوله عن غير إخلاص.

ولكن إذا كان الأحوص مكروهاً أو منبوذاً عند حرائر المدينة فقد كان محبوباً عند الإماء من مغنيات المدينة اللائى يغنين في نواديها الموسيقية، وكان ذا حظْوة ممتازة في دار جميلة، إذ كان هو الشاعر الذي يعطى هذه الدار ما تغنى فيه من شعر وغزل. وليس ذلك فقط، بل لقد كان يعشق من في الدار من مغنيات ويتخذ منهن خدينات له، وكأنه كان عاشقتاً للجمال أين حل أو تصور، لا يهمه أن تكون المرأة التي بها عربية، إنما يهمه أن تكون جميلة بارعة الحسن، ولا يعنيه بعد ذلك شيء منها ولآمن تاريخها وأصلها. وهنا يفترق الأحوص في غزله من شعراء الحجاز الذين نعرقهم، سواء شعراء البادية أو شعراء الحاضرة، أما شعراء البادية فقد كانوا يتغزلون بنساء بدويات من مثل عزة وبثينة وليلى، وأما شعراء الحاضرة فقد كانوا يتغزلون بالنساء الجميلات من الحاضرة، وكانوا يختارونهن من العرب، وقلما نجد شاعراً يتغنى بقينة أو أمة، ولنضرب لذلك مثلا عمر بن أبى ربيعة زعم الغزلين في مكة، فإنه كان يتغزل في الحواج من العربيات، وكانت صواحبه اللائى أكثر من الغزل فيهن قرشيات من

---

[1] انظر أغاني ٢٥٨/٦

[2] أغاني ٢٦٤/٤.

[3] جار الجنب: اللاصق بك إلى جنبك.

مكة، فالثريا ونغم وزينب كلهن قرشيات مكيات، ولكن ارجع إلى ما روى صاحب الأغاني للأحوص من غزل فستجد أكثره في هؤلاء المغنيات من الإماء الأجنبيات اللائى كن يغنين في المدينة من أمثال جميلة والدَّلْفاء وسلاّمة وعقِيلة العقيقية.

والأحوص حين يتغزل في هؤلاء المغنيات لا يتغزل عابثاً على نحو ما يتغزل عمر بن أبى ربيعة، ولكنه يتغزل في صدق، فهو يحبهن حبا عميقا يتغلغل إلى ذات نفسه. ويظهر أنه تعلق أول الأمر بجميلة، إذ يقول صاحب الأغاني إنه كان معجباً بها، وكان لا يكاد يفارق منزلها إذا جلست[١]، ومن شعره فيها وقد غنت فيه[٢]:

وإن يقُلِ الناس لي عاشقٌ ... فأين الذي هو لم يعشَقِ

ولم يبكِ نُؤْياً على عبرة ... بداء الصبابةِ والمعلَقِ[٣]

فهو يعلن عشقه لجميلة وأنه مريض منها بداء الصبابة، وجميلة تعجب به وبشعره وتغنيه فيه، ويغنيها فيه معبد[٤] وغيره من المغنين والمغنيات الذين يغنون في دارها. ومن شعره فيها أيضاً قوله[٥]:

وبالقفر دار من جميلةَ هيجتْ ... سوالفَ حب في فؤادك منْصبِ[١]

ترى العين ما تهوى وفيها زيادةٌ ... من الحسنِ إذ تبدو وملْهى لملْعِب

وقد قال يونس: ما لها صوت أحسن من صوتها في هذا الشعر، وقال: أنا أغنيه فتعجبني نفسي، ويدخلني شيء لا أعرفه من النخوة والتيه[٢] وهذا نفسه ما كانت تشعر به جميلة صاحبة الصوت وصانعته، وهل من ريب في أنها كانت تشعر في أثناء أدائها له بمودتها للأحوص، كما كانت تشعر بشيء من التيه، فهذا أهم شعراء المدينة يتعلق بها وينظم فيها كما ينظم ابن أبى ربيعة بمكة في الشريفات من النساء والفتيات الغزلات.

---

[1] أغاني طبع دار الكتب ٨/٢٣١.

[2] المصدر نفسه ٨/ ١٨٤.

[3] المعلق: المحبة.

[4] المصدر نفسه ٨/٢٠١.

[5] أغاني ٨/٢٣٣.

[1] منصب: متعب.

[2] أغاني ٨/٢٣٣.

ولم يتعلق الأحوص في دار جميلة بصاحبة الدار وحدها، بل لقد تعلق بكثير من المغنيات عندها. وقد تحدثنا في غير هذا الموضع عن كثرة من كان عندها من الإماء المغنيات، وكان الأحوص يتنقل بينهن جميعاً، يتغزل فيهن، ويعلن عشقه لهذه اليوم، ولتلك غدا، واستقر عشقه، على ما يظهر عند ثلاث، هن: الذلفاء وعقيلة وسلامة، وفى الذلفاء يقول[٣]:

إنما الدَّلْفَاء همي ... فَلْيدعنِي من يلوم

أحسن الناسِ جميعاً ... حين تمشى وتقوم

حبب الدَّلْفَاء عندي ... منطقٌ منها رخِيم

أصِلُ الحبل لترضى ... وهى للحبل صروم

حبها في القلب داء ... مستَكِن لا يرِيم[٤]

وهكذا كان الأحوص يحب المغنية من المغنيات، فيرى أنها كل همه في الحياة، وأنها أحسن الناس جميعاً حين تمشى، وحين تقوم، وحين تنطق، وحين تغنى ونحن لا نرتاب في أن دار جميلة أتاحت له أكبر حظ ممكن من الاتصال بهؤلاء النساء، يبتغى عندهن ما يملأ حسه ونفسه من متعة بالجمال والحسن، إذ كان هؤلاء المغنيات من أجناس مختلفة. وإن تغنى الأحوص بهن ليكشف عن ناحية مهمة في نفسه، وهي أنه كان أكثر شعراء المدينة أو قل شعراء الحواضر الحجازية شجاعة في الإفصاح عن دخائله وما يطوى في فؤاده، وهو لذلك يتغزل في هؤلاء الإماء، ولعله كان يفضلهن على النساء الحرائر، فذهب يفصح عن ذلك في حرية وصراحة.

وأكبر الظن أن الأحوص اندفع في ذلك أيضاً بعامل رغباته في الشذوذ على أذواق معاصريه، فإذا هو يختار لغزله هذا الموضوع الجديد من الإماء والقيان، وهو يختاره محبا له مؤثراً، إذ كان يجد في هؤلاء القيان والإماء من الصبابة والهوى والغزل ما لا يجده في النساء الحرائر المتحفظات، وكان يتغزل فيهن كما يريد ويهوى غزلاً عفيفاً وغزلاً صريحاً، لا حرج عليه في ذلك ولا لائم يلومه، لا أيمن ولا غير أيمن، واستمع إليه يقول في عقيلة العقيقية[١]:

---

[3] أغاني ٨/٢٠٠.

[4] يريم: يبرح.

[1] أغاني ٤/٢٥٩.

يا للرجال لوجدِك المتجددِ ولما تُؤَمل من عقِيلةَ في غَدِ
ترجو مواعِد، بعثُ آدم دونَها كانت خَبالاً للفؤاد المقْصدِ[٢]
هل تَذْكرين عقِيلُ أو أنساكِهِ بعدى تَقَلُّب ذا الزمانِ المفْسِدِ
يومي ويومك بالعقِيق إذِ الهوى منّا جميع الشملِ لم يتبددِ
لي ليلتان قليلةٌ معسولةٌ ألْقى الحبيب بها بنجم الأسعدِ
ومريحةٌ همي علي كأَنّني حتى الصباحِ معلَّق بالفَرقَدِ[٣]

وليس غريباً أن يكون الأحوص صريحاً في غزله على هذا النحو فعهدنا به أنه لا يخفي شيئاً في دخيلة نفسه.

وأهم مغنية تعلق بها الأحوص وشغف بها حبا سلاَّمة القَس، وقد فُتن بها الناس على ما يظهر في المدينة، بل في مكة أيضاً حيث هام بها عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمي الذي لقب بالقس لعبادته، ولذلك سميت سلامة القس، وله فيها أشعار طريفة[٤]. وتجد تحدثنا عنها في فصل الغناء، وكانت إحدى الجواري اللائى تعلق بهن الأحوص، بل اللائى أحبهن حما مفرطا، وكانت تبادله حباً بحب، وفيها يقول[١]:

أسلاَم هل لمتيمٍ تَنْوِيلُ أم هل صرمتِ وغال ودكِ غُولُ
لا تصرفي عنِّي دلالَكِ إنه حسن لدي وإن بخلتِ جميلُ
أزعمتِ أَن صبابتي أكذوبةٌ يوماً وأن زيارتي تعليلُ

وفى البيت الأخير ما يدل على أنها كانت تقول له إنك محب غير صادق فأنت رجل تحب كل من في الدار، دار جميلة، تحب صاحبة الدار وقد أحببت الذلفاء وعقيلة العقيقية، وأحببت غيرهما، فأنت لست محباً صادقاً ولا صاحب صبابة صادقة، إنما أنت رجل غزل تغازل النساء والإماء جميعاً، لا تفرق بين واحدة وأخرى. ويظهر أنها كانت تكثر عليه من الدل،

---

[2] المقصد: المجروح بالسهام

[3] تريح همه عليه: تسوقه إليه

[4] أغاني ٨/٣٣٤.

[1] أغاني٨/٣٣٧.

فقلما أتاحت له ما يريد من بهجة اللقاء، ومن أجل ذلك كان يكثر من توددها واستعطافها والتذلل لها كأن يقول[٢]:

أسلاَم إنكِ قد ملكْتِ فَأسجحِي ... قد يملك الحر الكريم فيسجِح[٣]

منِّى على عانٍ أطلتِ عناءه ... في الغُلِّ عندك والعناةُ تُسرح[٤]

وإذا شكوتُ إلى سلاَمة حبها ... قالت أجِدٌّ منك ذا أَم تمزح

فهي دائماً تتشكك في حبه، وتتهمه بأنه إنما يريد اللعب والعبث، بل لعله يريد المزاح وتزجية الفراغ، ومن ثم كان يعلن لها دائما في شعره أنه لا يستطيع سلوا عنها، بل إنه ليبلل يديها بدموعه، واستمع إليه يقول[٥]:

يا دين[٦] قلبك منها لستَ ذاكرها ... إلا ترقرق ماء العين أو دمعا

أدعو إلى هجرها قلبي فيتبعني ... حتى إذا قلت هذا صادقٌ نزعا

لا أستطيع نزوعاً عن محبتها ... أو يصنع الحب بي فوق الذي صنعا

كم من دني[٧] لها قد صرتُ أتبعه ... ولو سلا القلب عنها صار لي تَبعا

وزادني كلفاً في الحب أن منعتْ ... وحب شيء إلى الإنسان ما منِعا

وهكذا كانت سلامة تكثر من التمنع على الأحوص، فيزداد شغفه بها وتعلقه، ويكثر من شعره فيها، وكانت تغنى بنفسها هذا الشعر فتحسن فيه إحساناً شديداً. وقد روى صاحب الأغاني أنه هو وابن قيس الرقيات الشاعر المكي اجتمعا عندها، فغنتهما على البديهة بشعر لهما جميعاً فيها، فأحسنت في شعر الأحوص بأكثر مما أحسنت في شعر ابن قيس الرقيات، فقال ابن قيس الرقيات: أحسنت يا سلامة والله، وأظنك عاشقة للأحوص، فقال له الأحوص: ما الذي أخرجك إلى هذا؟ قال: حسن غنائها بشعرك، فلولا أن لك في قلبها محبة مفرطة ما جاء صوتها هكذا حسناً على هذه البديهة، فقال له الأحوص: على قدر حسن شعري على شعرك

---

[2] المصدر نفسه ٣٣٨/٨.

[3] الإسجاح: حسن العفو.

[4] عان: مقيد بالأغلال.

[5] أغاني ٢٩٩/٤ وما بعدها.

[6] الدين هنا: الداء.

[7] الدني: التافه الوضيع.

هكذا حسن الغناء به، وما هذا منك إلا حسد، فقالت سلامة: لولا أن الدخول بينكما يوجب بغضة لحكمت بينكما، فقال الأحوص: أنت من ذلك آمنة، فقال ابن قيس الرقيات: كلا! قد أمنت أن تكون الحكومة عليك، فلذلك سبقت بالأمان لها[١]

وطبيعي أن تحسن سلامة في غنائها بشعر الأحوص لأنها من جهة تغنى في شعر عاشق لها، ومن جهة أخرى تريد أن تثبت تفوقها في غنائها بشعره على زميلاتها الأخريات اللائى يتغزل بهن ويتغنَّين في غزله. وحدث أن اشترى يزيد بن عبد الملك سلاَّمة فازداد غف الأحوص بها وآخذ يرسل لها بأشعار، ويروى الرواة أنها كانت تغنى فيها يزيد مولاها، ومما غنته فيه[٢]:

عاود القلب من سلاَمةَ نَصب ... فلعيني من جوى الحب غَرب

ولقد قلتُ أيها القلب ذو الشو ... قِ الذي لا يحب حبك حِب

إنه قد دنا فِراقُ سليمي ... وغدا مطلب عن الوصل صعب

فهو يبكى سلامة على البعد، وهو يحس لها بين جوانحه بحب لا يماثله حب، وهو يشعر أنها فرت من يده هذه المرة، ولن يستطيع لقاء لها ولا وصلا. والطريف أنه يعلن هنا أنه لا يوجد محب يحب كما يحب هو، فهو إذا أحب ازداد كلفه وولعه وبالغ في حبه إلى أقصى غاية ممكنة، فهو يحب جميلة، ويحب أم جعفر، ويحب الذلفاء، ويحب عقيلة، ويحب سلامة، ومن يدرى لعله كان يحب أخريات وراءهن لم تسجلهن أشعاره في كتاب الأغاني. ونحن نظن أنه كان يحب حبابة أيضاً التي اشتراها يزيد هي الأخرى من المدينة، وقد سعت قبل صاحبته سلامة إلى إصدار العفو عنه من سيدها يزيدكما مر آنفاً. غير أن سلامة- على ما يظهر- هي التي شغفته حبا، فقد أكثر من الشعر فيها، وأكثر من تدلهه، كما أكثر من تحسره على فراقها، ومن أجمل ما يروي له في بيان لهفته عليها بعد خروجها من المدينة قوله[١]:

ضوء نارٍ بدا لعينك أم شَب ... تْ بذي الأَثْلِ[٢] من سلامةَ نار

تلك بين الرياض والأثْل والبا ... ناتِ منّا ومن سلامةَ دار

---

[1] أغاني ٣٣٧/٨.

[2] أغاني ٣٤٠/٨. والنصب: الغناء. والغرب: الدمع

[1] أغاني ١٣٢/٩.

[2] موضع قرب المدينة.

وكذاك الزمان يذهب بالنّا سِ وتبقى الرسوم والآثار

وعلى هذا النحو لم يبق للأحوص من سلامة ما يتحسسه ويرفع الطرف فيه ويخفضه سوى الرسوم والآثار، فهي كل ما بقى له.

وأكبر الظن أنه انطبعت في أنفسنا الآن صورة غزل الأحوص فهو يتغزل في الإماء والجواري من مغنيات المدينة، وهو يحسن في ذلك، ويأتي بالطريف البديع الذي يعجب معاصريه، ويروقهم، وقد تخصص بهذا الموضوع وأشاعه. وإذن فالغزل بالإماء والجواري ليس ظاهرة عباسية محدثة في الشعر العباسي عند بشار وأصحابه كما ظن بعض المعاصرين، وإنما هو ظاهرة أقدم من ذلك، هو ظاهرة أموية قبل أن يكون ظاهرة عباسية، أو قل هو ظاهرة حجازية قبل أن يكون ظاهرة عراقية.

(٣) مدائح الأحوص وأهاجيه

من يقرن مدائح الأحوص في بنى أمية إلى مدائح جرير والفرزدق والأخطل يشعر بفروق أساسية بين النوعين من المدائح، فمدائح الأحوص أسهل وأقرب إلى اللغة المألوفة من مدائح الفرزدق وصاحبيه، وهو من هذه الناحية يتميز تميزاً واضحاً. ليست مدائح الأحوص في بنى أمية مدائح طنانة، وهو حتى إن استطاع

أن يصنع بعض المدائح الطنانة، فإنه لا يستطيع أن يعمم ذلك في كل مدائحه، إذ كثيراً ما تخرج بعض نماذجه فيها عن الصورة العراقية التي تعتمد على البناء الضخم ، إلى صورة حجازية متحضرة، فيها أثر الغناء والموسيقى الجديدة. فالأحوص شاعر من نوع آخر غير الذي نعهده عند جرير والفرزدق والأخطل، شاعر يعتمد في حياته على أن يعيش في دور الغناء بالمدينة، وهو يصنع الشعر لهذه الدور من لغة مألوفة، وقد تسرب ذلك إلى مدائحه، فإن من يقرؤها يلاحظ أن لغتها قريبة إلى اللغة المألوفة. وهي ظاهرة يلاحظها كل من يقرأ شعر هذا العصر في الحجاز، ويقرنه إلى شعر العراق عند جرير والفرزدق وأمثالهما، فهو أقرب لغة وخواطر ومعاني في نفوس الناس. ولسنا أول من يلاحظ هذه الظاهرة على شعر الأحوص فقد لاحظها من قبل شاعر عاصره، وهو الفضل بن العباس اللهبي، إذ تعرض له

يوماً، وهو ينشد شعره، ولامه بأنه لا يحسن استخدام الغريب في الشعر[١]، وفات الفضل أن عصر الغريب انتهى على الأقل عند الأحوص وغيره من الغزلين في الحجاز، هو لم ينته عند الأحوص في غزله فقط، بل انتهي أيضاً في ضروب شعره الأخرى من مديح وغير مديح، واستمع إلى هذه الأبيات بقولها في يزيد ابن عبد الملك[٢]:

كريم قريشٍ حين ينْسب والذي ... أقرتْ له بالملك كَهلاً وأَمردا

وليس وإن أعطاك في اليوم مانعاً ... إذا عدتَ من أضعافِ أضعافِه غَدا

أهان تِلاد المال في الحمد إنه ... إمام هدى يجرى على ما تعودا

تشرف مجداً من أبيه وجده ... وقد ورثا بنْيان مجد تشيدا

لم يكن الأحوص يستخدم اللغة العربية في مدائحه، بل كان يستخدم لغة عادية قريبة إلى لغة الغزل الذي يصنعه، وكأنه كان يريد هذه المدائح أن تشيع على ألسنة الناس في عصره، وأن تصبح شبيهة بهذا الغزل الذي يغني في دور اللهو والموسيقى بالمدينة، حتى تذيع، بل حتى تكون صالحة لأن يغنيها المغنون، وكانوا يغنون فعلا مدائحه في بنى أمية[١]

ونحن نحس في الواقع عند الأحوص بتطور واسع يصيب قصيدة المديح، فقد أخذ أصحابها في الحجاز يحاولون أن يقتربوا في لغتها من الناس حتى تصلح للغناء، فتستقبلها آذان الجماهير كما تستقبل مقطوعات الغزل، وهم من أجل ذلك يستخدمون فيها اللغة الشعبية نفسها التي يستخدمونها في الغزل حتى يمكنوا لها في نفوس الناس. واستمع إلى هذا الشعر يقوله، الأحوص أيضاً في يزيد بن عبد الملك[٢]:

من يكن سائلاً فإن يزيداً ... ملِك من عطائِه الإكثار

عم معروفُه فعز به الد ... ين وذلّت لملْكَه الكفار

وأقام الصراطَ فابتهج الحـ ... ـقّ منيراً كما أنار النهار

---

[1] أغاني (طبع بولاق) ٣/١٥.

[2] المصدر نفسه ٤/ ٢٥٠

[1] انظر الأغاني ٢٩٧/١ وكذلك ٢٥١/٤.

[2] أغاني ٢٥١/٤.

وليس من ريب في أن هذا شعر خفيف على اللسان والأذن جميعاً، وهو من أجل ذلك أقرب إلى ذوق من يستمعون إلى غزليات الأحوص وغيره من شعراء الحجاز، وهو أيضاً أقرب إلى ذوق من يغنون في أشعارهم من المغنين والمغنيات.

لم تكن قصيدة المديح عند الأحوص يراد بها أن تنشد بين أيدي الخلفاء، بل كان يراد بها أن تغنَّى في سمرهم، يغنى فيها المغنون والمغنيات عندهم ، كما يغنى فيها المغنون والمغنيات عند الشعب نفسه. ومن هنا كنا لا نعجب حين نجد هذه القصائد تختلف في لغتها عن لغة القصائد الأخرى عند جرير والفرزدق والأخطل، فهؤلاء لم يصنعوا شعرهم وهم يفكرون أن يطلبوا إلى المغنين والمغنيات مثل حبابة أو معبد أن يغنوا فيه في أثناء سمر الخلفاء على نحو ما كان يطلب الأحوص[1].

كانت قصيدة المديح عند الأحوص قصيدة غنائية بالمعنى الدقيق فهي قصيدة يراد بها أن تصحب بالضرب على الآلات الموسيقية ولعل هذه الغاية عند الأحوص هي التي أعدت قصيدة المديح لتطور واسع في موسيقاها، فإن من يدرس موسيقى الأغاني وتطورها في الحجاز يلاحظ أنها تعدلت، وتجزأت، كما لاحظنا في غير هذا الموضع، وقد أخذ ذلك يتسرب فيما بعد إلى قصيدة المديح وغيرها من الشعر التقليدي بحكم أن من كانوا يصنعونه كانوا يساهمون في صنع الأغاني على نحو ما نلاحظ الآن عند الأحوص.

على كل حال كانت مدائح الأحوص تخالف- من بعض الوجوه- مدائح جرير والفرزدق في لغتها، وفى موسيقاها، إذ كانت موسيقاه أكثر صفاء بحكم اندماجه في الأوساط الموسيقية بالمدينة، وأعده ذلك، كما أعد غيره من أصحاب الأغاني، أن يستخدموا في شعرهم التقليدي الأوزان السهلة كالخفيف والرمل وما إلى ذلك، بل لقد أخذوا يستخدمون الأوزان المجزأة والمعدلة. ولم يظهر أثر ذلك واضحاً في العصر الأموي ولكنه ظهر في وضوح في أثناء العصر العباسي.

وإذا كانت مدائح الأحوص تخالف إلى حد ما مدائح جرير والفرزدق والأخطل في لغتها وصفاء موسيقاها وما يقْتَرح أحيانا على نفسه من أوزان ينظم فيها، فكذلك كانت أهاجيه تخالف أهاجيهم إذ لم تكن تعتمد على أيام العرب القديمة وحروبهم تقصها على نحو ما نعرف

---

[1] أغاني ٤/٢٥٠.

في نقائض جرير والفرزدق أو نقائض جرير والأخطل، إنما كانت تعتمد على هجو الشخص نفسه وتقبيحه بصورة تتصل به.

لم تكن قصيدة الهجاء عند الأحوص تستمد موضوعها من التاريخ ومن سيرة القبائل القديمة، إنما كانت تستمد موضوعها من الشخص المهجو نفسه. ونحن نغلو حين نسميها قصيدة، فلم يترك الأحوص في الهجاء قصيدة بالمعنى المعروف ألا نادراً، انما كثر ما تركه مقطوعات قصيرة وأبيات مفردة.

وهجاء الأحوص من هذه الناحية شبيه بهجاء العصر العباسي الذي نقرؤه عند بشار وحماد عجرد مثلاً، فهو لا يستعين على هجاء خصمه بقصيدة محبوكة الأطراف، وإنما يعمد إلى البيت والبيتين أو الأبيات القليلة فيهجوه بها هجاء مقذعاً.

ولعل في هذا النوع من الهجاء ما يلفتنا إلى ما حدث في شعر الحجاز وأنه كان شعراً شعبياً في جميع جوانبه، فالشاعر حين يصنع غزلاً لا يعمد إلى القصائد الطويلة التي لا يأتي الإنسان إلى آخرها حتى ينسى أولها. وهو كذلك حين يهجو. لا يهجو بقصيدة طويلة قلما تحفظ، إنما يهجو ببيت أو بيتن أو أبيات قليلة، حتى تحفظ، وتدور على جميع الألسنة.

ولم يتعلق الأحوص بهجاء شخص في المدينة كهجاء ابن حزم الذي جلده ونفاه إلى دهلك، ولكن يكاد هجاؤه فيه يعد مفقوداً، لولا بعض أبيات رواها صاحب الأغاني، وربما كان من أسباب ذلك أن المغنين أبوا أن يغنوا للأحوص في أهاجيه فيه، لأنه كان يلي المدينة، وكان قاسياً في ولايته لها، شديداً حازماً، فخافوه، ومن شعره فيه[١]:

أقول وأبصرتُ ابن حزمِ ابن فَرتَنَى ... وقوفاً له بالمأْزِمينِ[٢] القبائلُ

تُرى فَرتَنَى كانت بما بلغ ابنُها ... مصدقةً لو قال ذلك قائل

والفرتنى الأمة بنت الأمة. وإن فيما بقي من أهاجيه في غير ابن حزم ما يدل على شدة لذعه، وبعد كيده في الهجاء فمن ذلك أنه لما تعرض له الفضل ابن العباس اللهبي يقول إنه لا

---

[1] أغاني ٤/٢٣٧.

[2] المأزمان: جبلا مكة.

يحسن الغريب، فكر ماذا يرد عليه، ثم ذكر أن جده أبو هب وأن جدته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد، فقال توا[٣]:

ما ذات حبلٍ يراها الناس كلهم وسطَ الجحيم ولا تخفى على أحد

كلُّ الحبال حبال الناس من شَعرٍ وحبلُها وسط أهلِ النار من مسدِ

وعلى هذا النحو كان الأحوص يبلغ أحياناً بأبياته القليلة في الهجاء مبلغ أصحاب القصائد الطويلة، قصائد النقائض. ويقول الرواة إنه هجا رجلاً من الأنصار، فاستعدى عليه الفرزدق يهجوه له، ويرد عليه هجاءه، فأبى، وكذلك أبى جرير لما كانا يعلمان من مقدرته في الشعر والهجاء[١].

وكما يمتاز هجاء الأحوص بقصره يمتاز أيضاً بقرب لغته وأنه أدنى إلى للغة العادية، فتلك صفة عامة في شعره، وكان يعممها في هجائه، حتى يبلغ ما يريد من العنت بمن يهجو"، والتشهير به.

(٤) منزلة الأحوص بين شعراء عصره

إذا أخذنا ننظر في الشعراء الذين عاصروا الأحوص وجدناهم ينقسمون قسمين كبيرين: أصحاب الشعر التقليدي من مديح وهجاء، وكان موطنهم العراق، وأصحاب الأغاني من غزل ونسيب وما يتصل بهما، وكان موطنهم الحجاز. وإذا حاولنا أن نوازن بين القسمين وجدنا من الناحية التاريخية، كما قدمنا في غير هذا الموضع، أن أصحاب الغزل يأخذون في التفوق في أثناء هذا العصر على أصحاب الشعر التقليدي، بحيث لا نصل إلى أواخر العصر، حتى يتم لهم التفوق نهائيا.

ولكن هل يتيح لنا ذلك أن نضع أصحاب الأغاني جميعاً من مثل الأحوص في منزلة تعلو منزلة أصحاب الشعر التقليدي؟ وبعبارة أخرى، هل يتيح لنا ذلك إن حاولنا أن نضع طبقات للشعر في العصر الأموي أن نجعل في أعلى هذه الطبقات أصحاب الأغاني؟

---

[3] أغاني١٥/٣.

[1] أغاني ٤/٢٦٣.

إن من يرجع إلى طبقات ابن سلام التي وضعها لشعراء هذا العصر والتي يسميها طبقات الإسلاميين[٢] يجده يضع في الطبقة الأول من هذه الطبقات جريراً والفرزدق والأخطل. ومعنى ذلك أنه هو وغره من اللغويين في عصره كانوا يرون تقديم أصحاب الشعر التقليدي على أصحاب الغزل وأغانيه. ونحن نخالفهم في هذا الحكم من جميع الوجوه، بل لعلنا نعكسه عكساً تاما، فنذهب إلى قصر الطبقة الأولى على شعراء الحجاز من أصحاب الغزل، فهؤلاء هم الشعراء الممتازون حقا الذين كانوا يعبرون أولاً عن روح عصرهم وحياتهم التي يحيونها، ثم هم الذين جددوا في موسيقى الشعر العربي، وفى لغته، وأيضاً فإن شعرهم كاد أن يكون شعراً شعبيا يجرى على جميع الأفواه والألسنة.

نحن إذن نخالف ابن سلام وغيره من اللغويين في تقديم أصحاب الشعر التقليدي على أصحاب الغزل وأغانيه، ولعلهم إنما اضطروا إلى ذلك لأنهم كانوا لغويين ولم يكونوا يبحثون في الشعر عن القيم الفنية من حيث هي، وإنما كانوا يبحثون عن الشاهد والمثل، وكانوا يجدون في نماذج الشعر التقليدي مدداً لا ينضب من الأمثال والشواهد على اللغة وغريبها في اللفظ والتعبير، فانساقوا من ذلك إلى تفضيل أصحاب الشعر التقليدي، ووضعوا أشهرهم في الطبقة الأولى من الشعر الإسلامي.

وينبغي ألا ننساق معهم في هذا التفضيل لأن الحاجة اللغوية لا تهمنا، وإنما تهمنا الحاجة الفنية من حيث هي. ومن أجل ذلك كنا نخص الطبقة الأولى من الشعر الإسلامي أو الأموي بأهم من نظموا في الأغاني من أهل الحجاز، ولا نصنع صنيع ابن سلام حين أخرهم في طبقاته، وهل تدرى أين وضعهم؟ لقد وضعهم- أو قل وضع كثرتهم- في طبقة متأخرة هي الطبقة السادسة [١] بين طبقاته العشر، ولم يقدم أحداً منهم سوى كُثَيِّر فقد وضعه في الطبقة الثانية[٢].

ونحن لا نستطيع أيضاً أن نجعل كثيراً خير شعراء الحجاز من الغزلين، أو قل أصحاب الأغاني، ولعل ابن سلام، إنما قدمه، لأنه بدوي يجد عنده من غريب اللغة ما لا يجده عند شعراء الحواضر أمثال الأحوص وابن أبى ربيعة.

---

[2] ابن سلام ص ٧٥.

[1] ابن سلام ص ١٣٧

[2] المصدر نفسه ص ١٢١.

وقد وضع ابن سلام الأحوص في الطبقة السادسة وقرنه بابن قيس الرقبات وجميل ونُصيب، وتأخَّر به في مكانه بعد ابن قيس ونُصيب، ويظهر أنه تأثر في تأخره به أيضاً مسائل لغوية، لأنه كان عالماً لغويا، ولم يكن يهمه أن يقدم الشاعر من وجهة معنوية أو وجهة موسيقية. وعلل أبو الفرج لتأخر ابن سلام به تعليلاً آخر، فقال: " والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنيء الأخلاق والأفعال أشد تقدماً من ابن قيس ونُصيب عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة[١] ". وكأن أبا الفرج لم يقبل حكم ابن سلام على الأحوص، فهو في رأيه ينبغي أن يتقدم كل زملائه الذين ذكرهم ابن سلام في الطبقة السادسة.

ولعل في ذلك ما يدل على أن خلق الأحوص شوهه عند بعض النقاد وإنه لينبغي أن نفرق دائماً بين خلق الشاعر وشعره، لأن الشعراء ليس من وظيفتهم أن يحققوا مثلنا الأخلاقية العليا في الحياة، فالشعر شيء، والخلق شيء آخر.

الأحوص إذن ينبغي أن يوضع في المكان الأول من شعراء الطبقة السادسة التي خص بها ابن سلام شعراء الحجاز، ولكن هل يتأخر عن كُثير أو يتقدم عليه، أما ابن سلام فقدم كثيراً على شعراء الحجاز عامة، وهو حكم بني على أسباب لغوية فيما نظن، أما إذا تركنا اللغة ولم نحتكم إلى ذوق اللغويين فإننا نقدم على كثير عمر بن أبى ربيعة شاعر مكة، كما نقدم عليه الأحوص شاعر المدينة من حيث ما أنتجاه لهذا العصر من الغزل الذي أمدا به المغنين والمغنيات في الحجاز.

أما عمر فقد كان يقول فيه جرير إن أنسب الناس المخزومي[٢]، ولم يتجاوز عمر بشعره الغزل والنسيب إلى موضوع آخر، فهو من هذه الناحية يعد أهم شاعر في الحجاز وقف نفسه على الأغاني التي كان يغنيها ابن سريج وابن مِسجح وابن محرز والغَريض في مكة، كما كان يغنيها المغنون في المدينة من مثل معبد وجميلة.

وأما الأحوص فكان شاعر المدينة في النسيب والغزل غير مدافَع، وكان يحقق لنفسه في هذا الجانب تفوقاً ممتازاً حاولنا أن نصفه آنفاً، ويكفى لبيان تفوقه على كثير في غزله أن عزة

---

[1] أغاني ٤/٢٣٣

[2] أغاني ١/٧٦.

نفسها كانت تفضله عليه وتقول له: الأحوص ألين جانباً منك في شعره وأصغر خد للنساء وأشعر منك[٣].

وأكبر الظن أننا نستطيع أن نصل من ذلك إلى أن الأحوض كان من أصحاب المنزلة الأول للشعر والفن في عصره، وهو إذا قرن حفا فينبغي أن يقرن إلى عمر بن أبى ربيعة، فهما أهم من نظم الغزل في العصر، وكان عمر شديد الصلة بالمغنين في مكة في حين كان الاحوص شديد الصلة بالمغنين والمغنيات في المدينة. ومن يقرأ الأغاني يحس أن عمر كان له قصب السبق في تأليف الغزل وأغانيه. على أنه ينبغي أن نحتاط في الحكم لأن ديوان الأحوص مفقود، ولأن ما قدمناه عنه يدل على أنه كان أكثر حرية من عمر، إذ كان يتغزل في الإماء في حين كان يتغزل عمر في الحرائر.

ومهما يكن فإن عمر والأحوص يعدان في الطبقة العليا من شعراء العصر الأموي، ولسنا نستطيع أن نحكم بتفوق أحدهما على صاحبه حكماً واضحاً لأن أدوات هذا الحكم ناقصة، على الأقل فيما يتصل بالأحوص.

ولعلنا لا نتجاوز الحق حين نضعهما جميعاً في الطبقة الأولى من شعراء الأغاني، ثم نعمم فنجعل هذه الطبقة أولى طبقات كل الشعراء الذين أنتجهم العصر الأموي من تقليديين وغير تقليديين.

نحن إذن نخالف ابن سلام في تقديم أصحاب الشعر التقليدي على أصحاب الغزل، لأننا نحكّم الفن نفسه. وليس من شك في أن الشعر العربي أثرى عند أصحاب الغزل ثروة فنية عريضة، فقد أثرى من حيث الخواطر والمعاني، وأثرى من حيث اللغة والأسلوب، وأثرى أخيرا من حيث صحيفة الألحان، فإن أصحابه هم الذين غيروا في طبقات الأوزان الشعرية تبعاً للتغيير في طبقات الغناء وما عاصرهم من موسيقى.

---

[3] أغاني (طبع بولاق) ٢٣/١١.